رواية

عبّاس سليمان

أيام اضافية أخرى

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي

نسخة الكترونية

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مبروكي 2021

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي- مارس 2012

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي- مارس 2012

أيّام إضافيّة أخرى

رواية

الكاتب : عبّاس سليمـــــــان

الكتاب : أيّام إضافيّة أخرى

الجنس الأدبي: روايـــــــة

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي- مارس 2012

تصدير

سترى لوجهك صورة مجهولة
وترى ثيابك فوق جسم غير جسمك.
ربّما صادتك أنياب لها
لغة الملائك ، أو لها
شكل السّماء.

أ د و نـيـس
من قصيدة (إسماعيل)، كتاب
الحصار .ط:2
1996- ص219

ليلة البارحة لم أنم.

بتّ أمسك بين يديّ آلة حاسبة وأجري عمليّات جمع وطرح وضرب وقسمة. جمعت وطرحت وضربت ووزّعت مرّات ومرّات بطريقة جديدة في كلّ مرّة دون أن تنال رضاي ولا واحدة من الحسابات التي توصّلت إليها.

قالت لي أمّ سميحة غاضبة وهي تهمّ بأن تفتكّ منّي الآلة الحاسبة و القلم والأوراق:

- أرجوك، أطفئ النّور ودعك من هذه الحسابات التي لن تغيّر شيئا. الرّزق بات. والصّباح رباح.

ولكنّي تجاهلت غضبها وفورة أعصابها وفستانها اللّيليّ الشّفاف وشعرها المنسدل على كتفيها وماكياجها الخافت المثير وظللت أجمع وأطرح وأنفخ في أرقام وأذوّب أرقاما أخرى إلى أن توصّلت مع اقتراب الصّباح إلى توزيع أعجبني واطمأننت إليه. قلت أغفو ساعة أو بعض ساعة حتّى أستطيع أن أجابه أتعاب اليوم القادم. أعرف أنّه سيكون يوما متعبا بل فاتحة أيّام كلّها تعب.

قالت سميحة كالهامسة وهي تراني أفتح الباب:

- ستعود باكرا ؟

- لا أظنّ، أجبتها، ولكنّي سأحاول.

وقالت أمّها:

- إذا كنت تعرف أنّك لن تطيل المكوث في البنك فدعني أذهب معك لنترافق في المهمّات الأخرى.

- لست أدري، ولكنّي أفضّل أن يكون ذلك غدا.

التفتت سميحة إلى أمّها وبدأتا وشوشاتهما الصّباحيّة المعتادة وارتميت أنا خارج البيت.

السّماء صافية كعادتها منذ حلّت أيّام الصّيف الأولى.لم أرها تغيّر لونها منذ أكثر من ستّين يوما. لم يداخل زرقتها اسوداد ولا حتّى بياض. نظرت إلى شجيرات أمامي لأتثبّت إن كان ثمّة ريح أو حتّى نسمة عابرة تحرّكها وتعبث بأوراقها وإذ ألفيتها ثابتة هامدة لا حراك بها، أدركت أنّ اليوم سيكون قائظا كجلّ هذه الأيّام من شهر أوسّو التي افتقدنا فيها طعم النّوم وطعم الرّاحة و أصبحت حياتنا فيها ماء باردا و عرقا مالحا و جحافل ناموس و تأفّفا لا ينتهي إلاّ ليبدأ من جديد.

وقفت مع الواقفين أنتظر قدوم حافلة الصّباح... بدأ النّاس يتوافدون على المحطّة... وبدأت أشعّة الشّمس الأولى ترسل وهجها وتشوي الوجوه والأذرع والهواء... وبدأ العرق ينزّ من بدني.

سأل أحد المنتظرين دون أن يعني بسؤاله واحدا بعينه:

- متى تنتهي هذه الحرارة التي لا أحسب أنّنا عشنا مثيلا لها قبل هذا العام؟

ردّ عليه آخر:

- الصّيف ضيف. قريبا تنتهي الحرارة ونبدأ في الشّكوى من البرد.

ورائي وشوش رجل لامرأة:

- انتظرتك البارحة ولم تأت.

فردّت عليه:

- دسست للولد منّوما فابتلعه و لكنّه ظلّ يقظا اللّيل كلّه. سأضاعف له الجرعة هذه اللّيلة.

وأطلّت الحافلة. زحف النّاس إليها وأجبروا صاحبها على التوقّف قبل مكان الوقوف... وبدأ الهجوم على بابي الصّعود والنّزول. حلا لي أن أقف وراء كتلة اللّحم المضغوطة وأشاهد التصاقها وتموّجها واندفاعها نحو باب الحافلة الضيّق... عرق وصراخ وسباب وتوسّلات ومرافق فوق النّهود وأيادي على الجيوب وهواتف ترنّ... ومنبّه الحافلة يزعق... ثمّ بدأت تتحرّك العجلات تاركة أقلّ من نصف الكتلة يغلي ويلملم أطرافه وينسحب نحو سقف المحطّة... بحركة لا إراديّة، امتدّت يداي تتفقّدان جوّالي ووثائقي ومفاتيحي وما كان معي من أوراق وقطع نقدية ثم تركت موقف الحافلة وقلت أعوّل على قدميّ.

جاءني من الطّرف الآخر لساحة الحيّ صوت «جميل» يحيّيني وينادي. كنت على عجل ولكنّي ذهبت إليه. أخرجت من جيْبـي قائمة بموادّ غذائيّة وأخرى منزليّة وطلبت منه أن يجهّزها

خلال يومين أو ثلاثة... شربت تحت إلحاحه كأسا من الشّاي وتركته يستمع إلى نشرة أخباره الصّباحية التي يواظب عليها مواظبته على الانتصاب بالمغازة. لا أدري لماذا يصرّ جميل على تتبّع نشرات الأخبار ويحاول أن لا تفوته منها واحدة. يتـتبّعها نهارا من خلال جهاز الرّاديو ويتـتبّعها ليلا عبر شاشة التّلفزة ويقرأها لنفسه عن ظهر قلب إذا صادف وفاته سماعها لسبب من الأسباب. جميل يقول إنّ النّشرات لا تتغيّر ولكنّه يصرّ على أن لا تفوته واحدة منها. كنت أبتعد وكلمات عن الرّخاء والنّموّ والانتعاش تصرّ على أن تقرع أذني وصوت « جميل » يلاحقني: « سأنتظرك على شاي المساء »...

الطّريق إلى بناية البنك لا يستغرق منّي أكثر من عشرين دقيقة... قلت أحثّ خطاي وأغضّ من بصري حتّى أجتـنـب ما استطعت لحظات التّوقّف مع الأصدقاء والأقارب. أنا اليوم في حاجة إلى وقتي كلّه، إلى كلّ لحظة فيه. عليّ أن أسحب من البنك مبلغ الادّخار ومبلغ القرض وأبدأ في التّراتيب المتعلّقة بحفل زفاف سميحة. لم تأخذ منّي إجراءات القرض جهدا ولا وقتا. بسرعة درس المدير الملفّ وبسرعة أمضى عليه بالموافقة، وحدّد لي صبيحة هذا اليوم موعدا لسحب المبلغ كاملا. سيرهقني مبلغ الخصم الذي سيمتدّ على ستّين شهرا متواصلة بدون انقطاع و سينزل مستوى عيشنا إلى درجات سفلى لا تطاق و سنصبح أمام عجز مدمّر و لكنّ المسألة لا

تتطلّب التّأخير و لا خيار أمامي لمجابهة أزمة مصاريف عرس سميحة غير اللّجوء إلى الاقتراض.

منذ ثلاثين عاما وأنا أكدح من الصّباح إلى الصّباح ومنذ خمسة وعشرين عاما وزوجتي تكدّ من اللّيل إلى اللّيل ثمّ لمّا أهلّ عرس سميحة لم نجد لدينا في البيت و لا خارجه ما يسدّ عشر المصاريف الضّروريّة التي يتطلّبها عرس خافت هادئ محتشم جدّا.

قال أصهاري الجدد:

- انحبّو سميحة بالحوايج اللّي عليها.
- حاجتنا بالعروسة. ما حاجتنا معاها بشيء.
- ولدنا جاهز. ما اتّعبّوش أرواحكم حتّى في إبرة.
- هنّيونا في سميحة و خلّوا كل شيء علينا.

ولكنّني لم أرضخ لكرمهم. رفضت بشدّة.

قلت لهم:

- لا.

وقالت لهم زوجتي: لا. لا. لا. هذه ابنتنا. والعرس يأتي مرّة واحدة. ولن تخرج من بيت أبيها إلاّ مجهّزة مكرّمة منعّمة. وسنقيم لها حفلا ليس أقلّ من حفلات بنات الجيران وبنات الأعمام والأخوال.

لا يبدو على سميحة أنّها متلهّفة على الزّواج ولكنّ إصرار عريسها على أن يتمّ الحفل بسرعة وبطالتها التي لا يبدو لها آخر دفعاها إلى أن ترتمي في تجربة أخرى. كانت تأمل أن تجد شغلا

بمجرّد تخرّجها فتقف إلى جانبي وتغيّر لون حياة العائلة ولو قليلا وتساعد أخاها العاطل عن العمل بمشروع مّا ولكنّ الشّهادة الجامعيّة التي افتكّتها بعد دراسة أربع سنوات لم تخوّل لها أن تجد مكانا في سوق الشّغل.

قالت أمّها:

لست أدري لماذا يفتحون المدارس والمعاهد والكلّيات وينفّرون أعمارنا ويحرقون أدمغة أبنائنا وبناتنا...

لست أدري لماذا يكون هذا كلّه إن لم يكن بعده شغل مضمون وجراية مريحة ينســيان الفقر والتّعب...

ببرود رددت عليها:

- أنت تشرّعين لعودة الجهل... لإغلاق المدارس ولطرد المدرّسين.

- أنا أؤمن بأنّ الدّراسة ليست غير طريق مضمون إلى الشّغل.

كنت أحاول أن أتجنّب قدر المستطاع أشعّة الشّمس... كنت أمشي جنب الحائط... كلّ النّاس هربوا إلى الحيطان... لا أدري ماذا سيفعل هؤلاء وقت العودة إلى الدّيار عندما يموت ظلّ الأشجار ويموت ظلّ الحيطان... كانت المتاجر قد بدأت تفتح أبوابها والتّجّار قد استقرّوا بعد وراء مضاربهم والبائعات أخذن أماكنهنّ على عتبات

المحلاّت ووضعن على شفاههنّ ابتساماتهنّ المهنيّة وشرعن في مراودة المارّة والحرفاء.

أيقظتني تحيّة صباحيّة اعتدت صوتها وجرسها في الشّارع وفي الهاتف وفي المكتب أحيانا:

- محجوب ! أهلا. أمس سألت عنك في المكتب فأخبروني أنّك في إجازة. لا بأس ؟

- أخذت إجازة بعشرين يوما فقط لأتفرّغ فيها لحفل زفاف سميحة.

- مبروك... نلتقي مساء في المقهى ؟

- نلتقي مساء.

-2-

عندما أطلّ البنك، لم أصدّق عينيّ، هالني أن أشاهد أمامه كتلة بشريّة فاضت على بهوه ووصلت إلى طرف الشّارع المقابل... هذا منظر لا يثير الحيرة أيّام رأس الشّهر ولكنّه يبدو غريبا في أواسطه. لماذا يتدافع النّاس والوقت لا يناسب مواعيد الجرايات؟ ما الذي جمع بين صغار الموظّفين وكبارهم والتّجّار والمتقاعدين...؟

اقتربت حتّى التحمت بالكتلة الآدميّة المتموّجة وبدأت أسأل. سألت صديقا لي فصوّب نحوي عينين زائغتين ولم يفتح فمه بحرف ولا صوت وسألت امرأة فوضعت وجهها بين كفّيها وبدأت تولول وتندب حظّها التّعس وسألت رجل شرطة فزمّ شفتيه وهزّ كتفيه وأعرض عنّي وسألت إمام جامع الحيّ فرفع في وجهي ذراعيه و بدأ يسبّ و يشتم ثمّ شخص ببصره نحو مكتب مدير البنك وانخرط في دعاء طويل ...وسألت وسألت وسألت ثمّ أوسعت لي بذراعيّ مسلكا حتّى وصلت شبّاك الخزينة وسألت موظّفه البـــدين " كريم" :

- صباح الخير " كريم "! ماذا يحدث؟

لم يجبني " كريم " ولكنّه أشار إلى معلّقة كبيرة ملصقة في أعلى الشّبّاك.

هززت رأسي وقرأت:

*** إعلام***

ليكن في علم كافّة حرفائنا الأعزّاء أنّ عمليّات الصّرف والتّحويل والسّحب مستحيلة تماما وذلك لعدم توفّر السّيولة بكلّ فروعنا.

*** شكرا ***

قلت لكريم:

- هل سيصبح السّحب ممكنا بعد ساعة أو ساعتين؟

فوجئت بمجرّد ما أنهيت كلامي بعشرات الرّؤوس تتدافع في اتّجاه شفتي " كريم" لتتلقّف إجابته عن سؤالي. و زعق في الجمع شيخ آمرا بالكفّ عن الكلام و الهمس ريثما ينتهي من كلامه قابض البنك.

قال "كريم" و قد خيّم على المكان هدوء مخيف:

- لا يبدو الأمر بسيطا إلى هذا الحدّ. مسألة السّيولة تتجاوز بنكنا إلى كلّ البنوك الأخرى وإلى كلّ المراكز الماليّة. أعتقد أنّ السيّد المدير يجري الآن اتّصالات ليتزوّد بمعلومات واضحة. تصوّر- واقترب منّي وأشار عليّ بالاقتراب وبدأ يحدّثني همسا – أنا نفسي كنت سأسحب قرضا بمبلغ ثلاثة آلاف دينار هذا الصّباح. وعدني أحدهم أن يتوسّط لابني " النّاجي" ليقع تعيينه في وظيفة واشترط ثلاثة آلاف دينار مسبقا. ليتني يا محجوب سحبتها أمس حتّى لا أضيّع على " النّاجي " فرصة أحسب أنّها لن تتكرّر.

انضمّ إلينا رجل ثالث، ترك مسبحته تتدلّـــــى فوق مضرب " الكاسة " وقال لكريم:

- لديّ من فضلك حالة خاصّة. خاصّة جدّا. زوجتي مريضة. مريضة فعلا... منذ شهور وأنا أماطلها وأرجئ أمر عرضها على الطّبيب إلى أن بلغ انتفاخ قلبها درجة لا تطاق. اتّفقت أمس مع أخصّائيّ على أن يدخلها اليوم مصحّته ليفحصها ويصوّر قلبها ويصف لها الدّواء...

- قلب زوجتك مشكلة فعلا ولكنّي لا أستطيع أن أفعل لك شيئا. نحن سواء. هل تصدّق. أنا وأنت وكلّ هؤلاء سواء !

- أريد أن أعرض قلب زوجتي على مديركم. أنا متأكّد أنّه سيفهم شكواي و أنّه لن يتردّد في التّعاطف معها.

- أقسم أنّه لن يضيف إلى ما قلته لك شيئا. هو أيضا لا يملك أن يساعدك بملّيم أحمر.

ترك " كريم " الشّبّاك وذهب يختفي داخل مكتب المدير وانسحبت أنا إلى الخلف... اتّكأت على الحائط وأشعلت سيجارة وتركت عينيّ تتابعان تموّج الدّخان والتفافه وتفرّقه وتلاشيه.

بيننا وبين عرس سميحة شهر واحد... و" كريم " يقول إنّ المسألة ليست بالبساطة التي فهمتها... و إنّ السّيولة جفّت فجأة هذا الصّباح... وإنّه لا أمل في العثور على دينار واحد في أيّ فرع أو مركز بريد... وعلينا أن ندفع للحلاّقة وللعطّار وللجزّار ولمحلّ الكراسي

والأطباق وعلى سميحة أن تشتري أطقما من الماعون و أفرشـــة وزرابي وعليّ أن أستقدم البنّائين وأغيّر لون الدّار وساحتها وأرضيّتها... وعليّ أشياء كثيرة أخرى...

لم تهدأ الهواتف الجوّالة عن الرّنين والاشتغال وامتلأت باحة البنك وساحته والشّوارع المحيطة به بالحرفاء وأقربائهم وطائفة من الفضوليّين وبدأت تعلو أصوات الاحتجاج وركع النّاس يلتقطون الحجارة ثمّ بدأت سيول منها تمطر باب البنك وشبابيكه وزجاجه...ولم ينجح رجال الشّرطة الذّين سارعت سيّاراتهم إلى المكان في تفريق الخلق وتفريغ أيديهم من الحجارة ولكنّهم نجحوا في تهدئتهم ريثما يلقي فيهم السيّد المدير كلمة.

أطلّ المدير محاطا بأربعة رجال شداد غلاظ، وقال:

- أيّها السّادة، إنّ وجودي على رأس بنككم هذا لا يعطيكم الحقّ في أن تحمّلوني مسؤولية اختفاء الأموال و فراغ الكاسة... جئنا هذا الصباح وفتحنا مكاتبنا وبدأنا استعداداتنا المعتادة...ولكنّـنا أُخْبِـرْنَـا أنّ البنك لن يزوّد بالسّيولة... إنّني أجد لغضبكم وفورة أعصابكم وردود أفعالكم ألف عذر ولكن ثقوا أن لا ذنب لي ولا لزملائي في هذا الذي يجري.

بصوت واحد سأل النّاس:

- متى تصبح للبنك سيولة؟

مصّ المدير ما تبقّى لديه من ريق وقال:

- سأكون صريحا معكم: ليست لديّ توضيحات كافية. منذ قليل نبّهونا ونصحونا أن نُــنبّهكم إلى أنّ التّعامل بالشّيكات أصبح غير قانونيّ بالمرّة وأُمِرْنَا أن نغلق مقرّات البنوك إلى أجل لم يسمّ. صدّقونــي ،ليس في البنك الآن دينار واحد ولم يُخبرنا أحد قبل اليوم أنّ المسألة ستصل إلى هذا الحدّ.

ثم نزل المدير ووجم النّاس... وبدؤوا يتفرّقون. رنّ في جيبي هاتفي الجوّال، نظرت إلى الرّقم وهممت بان أغلق الجهاز ولكنّي فتحته.

- آلو.
- صحيح هذا الذي سمعناه؟
- تقريبا.
- ما معنى تقريبا ؟ ثمّة فلوس ولاّ ما ثمّاش؟
- ما ثمّاش

وأقفلت الهاتف.

بدأ النّاس يتركون مبنى البنك. لا أحد فكّر في العودة إلى بيته. لا أحد فكّر في العودة إلى عمله... هاموا في طرق المدينة...هاموا واجمين... مصّوا ما تبقّى من سجائرهم.. ثم هكذا دون اتّفاق مسبق، جمعتهم ساحة نهاية شارع البيئة المفتوحة على الحيّ الإداري أين تنتصب الإدارات ومراكز الأمن. وعلى مضض دُفِعَ رجال الأمن دفعا إلى تطويق المكان وتشكيل درع يحمي المسؤولين

الذين هبّوا إلى شبابيك مكاتبهم يطلّون منها على الوجوه الكالحة والأيادي القابضة على الغضب والأحدّة والحجر وأعواد الخشب والقوارير.

سيطر الفزع على جماعة المكاتب الذين لم يروا هذا الحشد الهائل من الخلق حتّى في المرّات التي زار فيها المدينة مسؤولون كبار وحتّى أيّام مهرجان وليّ المدينة الصّالح... أسرع كلّ منهم يهتف إلى مسؤوله الأعلى... وسارع المسؤولون الأعلون إلى رؤسائهم الذين من فوقهم ثم توجّه إلى كلّ حشد من الحشود المتراصّة أمام الإدارات من يطمئنه بأنّ مسألة فراغ البنوك وضعت توّا على طاولات كبار مسؤولي الدّولة بالبلاد... وأنّ الحلول تطبخ على نار تغلي.

- عودوا الآن إلى دياركم وتأكّدوا أن لا أحد منّا ولا من الذين من فوقنا سينام أو سيجد للرّاحة سبيلا قبل أن نصل إلى كلّ الأيادي التي تسلّلت في غفلة منّا وعبّأت بكل الأموال العامّة أرصدتها... واختفت.

صاح رجل منّا :

- ولكنّ قلب زوجتي المنتفخ سيــزداد انتفاخا.

وصاح واحد آخر:

- ابني " النّاجي " كان سيجد شغلا. كان سيشتري وظيفة بثلاثة آلاف دينار... فقط.

وارتفع صوت ثالث:

- أنا مقاول بناءات. عمّالي سيخنقونني إن لم أدفع لهم اليوم جراياتهم أو قسطا منها.

كنت سأنفّس عن صدري قليلا وأتكلّم ولكنّ امرأة صاحت من ورائي بصوت أبحّ:

- نحن مقدمون على زواج بعد شهر واحد. كنّا سنسحب اليوم شقاء العمر لنصرفه في الفرح... ماذا سنقول للعروس... ولأهلها... وكيف سيحتفل ولدي بزفافه؟

-3-

لأوّل مرّة أكره العودة إلى البيت... لأوّل مرّة أشعر بالخوف من أن أنظر في وجوه زوجتي وسميحة وعاصم.

كانت في جيبي ورقتان نقديّتان وقطع نقدية أخرى. ضربت فخذي أتفقّدها ثمّ أدخلت يدي تتلمّسها وتركتها هناك. صرت أتحرّك كمن به كسر في كتفه من فرط إمساكي بجيبي... ذلك الإحساس بالخوف على ما في الجيوب سرى في نفس الوقت في نفوس كلّ المحتشدين في ساحة الحيّ الإداري... أسرعت الأيادي تضرب الأفخاذ والمؤخّرات والصّدور ثمّ تسلّلت إلى الجيوب واستقرّت فيها... الكلّ أصبح يمشي أعرج.. أسرعت السّيّدات والآنسات يحوّلن حقائبهنّ اليدويّة من أكتافهنّ إلى أعناقهنّ... وعلى كلّ نهدين ، كانت ثمّة حقيبة يدويّة تتدلّى. لأوّل مرّة أحسّ أنّني رجل ثريّ وأنّ لديّ ما يجب أن أخشى عليه... ظللت أضع يدي في جيبي وأقبض على الثّروة التي فيه إلى أن وصلت إلى البيت... زوجتي وعاصم وسميحة ثلاثتهم كانوا جالسين في البهو يرنون بعيون شاردة إلى الباب الخارجيّ... كانوا ينتظرونني... ولكنّ دخولي عليهم لم يثر اهتمامهم ولم يحرّكهم ولم يغيّر جلستهم... امتدّت يدي إلى جهاز التلفزة تشغّله، فأطلّ المذيع... أطلّ كأنّه كان مختبئا ينتظر أن يضغط أحدنا على زرّ التّشغيل... أطلّ بشعر منفوش ووجه كالح وربطة عنق غير مربوطة... فتح فاه وبلع ريقه ثمّ فتح فاه وبلع ريقه... ثمّ بلع ريقه وفتح فاه وقال:

أيّها السّادة، أيّتها السّيدات.

جاءنا البلاغ التّالي:

استولت طائفة منّا على كلّ الأرصدة الموجودة في البنوك وفي المراكز الماليّة... وتجري الأبحاث حثيثة للعثور على الجناة وعلى كلّ من ساعد من قريب أو بعيد في تحويل كلّ المال العامّ إلى أرصدة شخصيّة. كما تجري الاتّصالات في الدّاخل والخارج على قدم وساق لإعادة تمويل بنوكنا بما يسمح لحرفائها بالسّحب من جراياتهم ومدّخراتهم..

ثمّ اختفى المذيع... وظهر مكانه المرحوم عبد الباسط عبد الصمد يرتّل في أناة:

"... اصبروا و صابروا و رابطوا... " فقمت أغلق الجهاز وأبحث عن مكان أخبّئ فيه الورقتين النّقديّتين.

وأنا أتهيّأ للنّوم، جاءت زوجتي وسميحة وعاصم يحيطون بي. تبادلنا نظرات شاردة... زممنا شفاهنا وهززنا أكتافنا... قطّبنا جباهنا ثمّ ابتلعنا ريوقنا المرّة ووضعنا على رؤوسنا مخدّاتنا و عبثا بدأنا نبحث عن النّوم. زفرت زوجتي و تنهّدت مرّات و مرّات إعلانا عن رغبتها في جرّي إلى تقصير اللّيل بالحديث... وأنار عاصم غرفة الجلوس ثمّ أعاد تشغيل التّلفزة طمعا في أن نتحلّق حوله من جديد...وشرعت سميحة تتردّد بين غرفتها و المطبخ صاكّة بابها صكّا

مسموعا لتلفت الانتباه إلى أرقها و قلقها وعدم استيعابها لحقيقة ما حدث... أنا أيضا كنت في حاجة إلى من يبدأ معي الحديث، إلى من يقول أيّ كلام... إلى من يقطع عنّي أرقي وقلقي وخرسي... لم أستطع أن أقول لأيّ من الجماعة شيئا... أشعلت سيجارة وصوّبت فوهتها باتّجاه وجه أمّ سميحة و بدأت عامدا متعمّدا أنفث في عينيها و أنفها الدّخان. زوجتي لا تطيق دخان السّجائر ... تثور و تهيج إذا ما داهمها في مكان ضيّق، في غرفة أو مكتب أو سيّارة... وأنا اعتدت أن أحترم كرهها لدخان السّجائر... أقلعت منذ أيّام زواجنا الأولى عن التّدخين في السّرير... اللّيلة تعمّدت أن أدخّن و أن أوجّه نحوها كلّ الدّخان الذي سأنفثه... استرقت النّظر لأقرأ في حركاتها و تقاسيم وجهها ردّة فعلها ففوجئت بها ساكنة يابسة لا تبدي حراكا و لا امتعاضا ولا تأفّفا... اقتربت منها أكثر وبعثت من فمي وأنفي إلى فمها و أنفها كلّ الدّخان المتجمّع في صدري... و لكنّ أمّ سميحة ظلّت ساكنة تحدّق بعينيها المتّسعتين في السّقف و تشبك على صدرها ذراعيها في استسلام تامّ... ازداد تردّد سميحة بين غرفتها و الحمّام و بين غرفتها والمطبخ و تسارع نسق صكّ الأبواب... وعلا صوت التّلفزة وبدأ يتعاقب بسرعة ترتيل القرآن و قراءة الأخبار و كلام الممثّلين وضحك و عواء و نباح و نشيد...

أطلّت الشّمس حمراء متوهّجة كجمرة في مهبّ الرّيح، ثم سريعا بدأت أشعّتها تصل حارّة لاذعة تشوي الأرض والعباد

والهواء... زوجتي نهضت باكرا. لم تفكّر في اقتناء الخبز من عطّار الحيّ "جميل" ولم تتـثـبّت إن كان العطّار قد فتح مغازته كما اعتاد أن يفعل كلّ صباح... طبخت حساء... طبخت ماء ودقيقا وشيئا أحمر... وتربّعت أمامه تنتظرنا...

قالت:

- ستخرج؟

قلت:

- سأخرج. ولكنّي لا أدري إلى أين؟

وخرجت.

لم يكن في المحطّة أحد... ولا شيء يدلّ على أنّ الحافلة ستأتي لتؤمّن رحلات الرّكّاب... لم أشاهد سيّارة تاكسي واحدة... ولم تكن مغازة جميل مفتوحة كعادتها. قلت أهيم على وجهي. في كلّ الشّوارع كان النّاس يهيمون. يمصّون ما تبقّى من سجائرهم ويحملقون في وجوه بعضهم بعضا ويهيمون. اصطدمت بواحد كان يمشي أمامي كالسّكران، عندما التفتّ لأعتذر له تذكّرته:

- كنّا معا أمس أمام شبّاك "كريم"؟

نظر إليّ وأومأ أن نعم.

- كيف حال زوجتك؟

انفجر ضاحكا. ظلّ يضحك إلى أن أحسست بالنّدم على طرح السّؤال فأعتذرت له ثمّ هممت بتركه ولكنّه أمسكني من كتفي وقال وقد خفّت حدّة ضحكه:

- تعرف ما الذي حصل؟ تعرف ماذا جرى للطّبيب عندما بلغه نبأ فراغ البنوك؟

- لا. أنا أسأل عن صحّة زوجتك. ما دخل الطّبيب؟

- الذي مات هو الطّبيب. بمجرّد ما تأكّد من الخبر، سقط ميّتا. زوجتي، عندما نقلوا إليها الخبر كادت تموت ضحكا. ضحكت حتّى نسيت انتفاخ قلبها ويبدو أنّ القلب من فرط ضحكها عاد إلى حجمه الطّبيعي!!!

من كلّ أرجاء ساحة الحيّ الإداري، ضجّت الحناجر بالصّياح وتعالت هتافات منتظمة تنادي بإعادة الأموال المسروقة وإعادة تمويل البنوك وصرف مستحقّات المواطنين ثمّ سارعت الأيدي إلى الجيوب تقبض على ما فيها من حجر وترمي به واجهات الإدارات والبنوك والسّيّارات الإدارية... تهشّم الزّجاج وتساقط، وتساقط ندفا بلّور السّيّارات وتطايرت شظايا شاشات الحواسيب وشهادات التّقدير وشهادات الشّكر... وتحوّل الحيّ الإداري إلى ركام من البلّور وخلت مكاتبه من مسؤوليها الذين فرّوا عبر أبواب خلفيّة أو اختفوا في الدّهاليز أو التحموا بصفوف الخلق وبدؤوا يرمون كراسيهم التي هربوا منها بما يقع في أيديهم من حجارة أو بلّور...

لم يستطع أعوان الأمن والجيش بفصائلهم المختلفة أن يفعلوا شيئا... لم يتصدّوا لحملة الغضب والتّكسير غير دقائق قليلة ثمّ أسرعوا ينزعون أزياءهم ويلتحمون بصفوف المواطنين منادين هم أيضا بإعادة الأموال إلى خزائنها وبتـتـبّع ومحاسبة كلّ اللّصوص الذين أفرغوا البلاد ليملؤوا أرصدتهم ويهجّوا.

مع اقتراب منتصف النّهار، شعر النّاس بجفاف حناجرهم وكلل ألسنتهم... خفتت أصواتهم وتراخت أذرعهم ولم تعد سيقانهم تقوى على جثـثهم المعبّأة غضبا وخوفا... انتشروا تحت ظلال الأشجار والجدران والسّيّارات... افترشوا البلاطات والتّراب وورق الجرائد وصناديق الكرتون وتركوا أبدانهم تتمدّد.

قالت لي امرأة تمدّدت حذوي لتقتسم معي الظلّ الذي عثرت عليه:

- أليس لديك أنباء جديدة؟
- أنباء عن ماذا؟
- عن البنوك التي أُفرغت والأموال التي هربت؟
- ليس لديّ جديد، ولكنّي على شبه اعتقاد بأنّ من أخذ شيئا لن يعيده وأنّ من غادر البلاد لن يعود إليها.
- سيموت نصفنا جوعا قبل أن تشتغل البنوك من جديد.
- ربّما يموت أكثر من النّصف.

أطلّت من مؤخّرة الحيّ الإداري عربة خضراء كبيرة وشرع من فيها من الجنود يرمون إلى النّاس بأرباع من الخبز اليابس وقطع من الجبن وقوارير بلاستيكيّة صغيرة من الماء... لم يتهافت على العربة أحد فقد كان النّاس جميعا على حالة شديدة من الإعياء...ولم يكن لأحد شهيّة للأكل... ولا حتّى للشّرب... مضغ بعضنا الخبز يابسا وخبّأ آخرون نصيبهم في جيوبهم... وصببنا في أجوافنا اليابسة قوارير الماء ونمنا. كنت متعبا ولكنّي لم أستطع أن أنام. ظللت أستمع إلى الشّخير و الهلوسات وأقلّب بصري بين الأفواه المفتوحة... بين الجثث الحيّة المبثوثة تحت ما بقي من ظلال الجدران والأشجار والعربات وأشاهد ما عليها من ذباب ونمل وعرق أبيض.

قالت التي اقتسمت معي الظلّ وهي تراني أنهض وأنفض الغبار وأهمّ بمغادرة المكان :

- هل سننهض لنصيح ونندّد ونهدّد ونقذف الإدارات بالحجارة من جديد؟

- لا أظنّ. أنا أنهض لأعود إلى بيتي. مازلت لا أدري لماذا قضيت أكثر النّهار هنا.

ترك الذين سمعوني مضاربهم ونهضوا ييمّمون أقدامهم المتعبة شطر بيوتهم الخاوية.

عثرت في طريقي على مغازة عطارة مفتوحة... لم تكن أمامها زحمة تمنع وصولي أروقتها بل إنّ حرّاس المحلّ كانوا أكثر من

زبائنه... شبّان غلاظ لا أدري من أين اصطادهم صاحب المغازة وجاء بهم لحراسة سلعته وتأمينها ضدّ السّرقة والنّهب مقابل أن يتناولوا عنده وجبة غداء... لم أفاجأ بارتفاع الأسعار وباختفاء الكثير من أنواع السّلع... اشتريت كيلوين من الدّقيق ولترا من الزّيت الرّخيص ورطلا من الملح وآخر من معجون الطّماطم وانصرفت أحثّ الخطى نحو البيت.

كانت أبواب المقاهي والمطاعم والإدارات ومحلاّت البيع مغلقة... لم يبق مفتوحا غير النّزل السّياحيّة وبعض المتاجر والمطاعم التي اعتادت ورود السيّاح عليها... السيّاح أنفسهم بدؤوا يتناقصون بعدما نصحتهم بلدانهم ليلة البارحة بالعودة العاجلة... مررت في طريق عودتي برجل يبيع كدسا من التّمر. كان يمسك هراوة ويحيط نفسه وتمره بولدين غليظين يقبضان على أذرع من حديد. قلت في نفسي: إمّا أن يكون هذا الرّجل رحيما دفعته شفقته على النّاس إلى أن يخرج لهم تمره ويعرضه عليهم في مكان عليّ وإمّا أن يكون غبيّا زيّن له غباؤه أنّ ثمن التّمر خير من التّمر. اشتريت منه كيلوين ورجوته أن يحتفظ لي بكميّة أخرى ريثما أعود إليه... وتركت الحرفاء الذين جلبتهم رائحة التّمر يحومون حوله، يتشمّمون سلعته ويجادلونه في السّعر.

-4-

قال لي عاصم:

- لست أدري لماذا هكذا فجأة طارت أسعار كلّ الموادّ. أليس المفروض أن تنزل مادام الشّحّ في الأموال لا فيها.

فردّت أمّه:

- لو عارضنا ارتفاع الأسعار قبل النّكبة لما وصلنا إلى ما نحن فيه. كانت الأسعار ترتفع... ونحن نشتري... نتذمّر ونتنافس في الشّراء... نتذمّر ونتزاحم على البضائع... إلى أن فرغنا نحن وامتلأ غيرنا.

أعترف بأنّ زوجتي غالبا ما لا تنطق إلاّ صوابا. أذكر أنّها تنبّأت بالنّكبة قبل حلولها. قالت لي يوما:

- سنفيق ذات صباح قريب على خبر فراغ البنوك من السّيولة... وسنجوع... وسنموت جوعا.

قلت لها:

- لا أظنّ الأمور تصل إلى هذا الحدّ. ربّما تواصل ارتفاع الأسعار، ربّما تواصل استقرار الأجور... ربّما يزداد عدد العاطلين... ولكنّ البنوك ستظلّ عامرة رغم كلّ شيء. المال قوّام الأعمال. لا أستطيع أن أتخيّل الحياة دون بنوك تدفع وتأخذ ودون جرايات تصرف ودون عمليّات بيع وشراء مختلفة.

- من أين ستأتي الأجور؟ وبماذا ستشتغل البنوك إذا كان هناك من يأخذ ولا يردّ... إذا كان النهب لا يتوقّف... أنا أخرج إلى

العمل مثلك... وأسمع هنا وهناك حديث النّاس وخوفهم ممّا يجري وممّا قد يؤول إليه الأمر.

هكذا هي فريدة منذ بضع سنوات. لم تعد تثق في جدوى التّعليم ولم تعد تؤمن بمصداقيّة الإدارة ولم تعد تصدّق شيئا من نشرات الأخبار وأصبح التّشاؤم يلوّن كلّ أفكارها وأحلامها ومشاعرها و كلامها.

يومها قلت عنها إنّها متشائمة جدّا وإنّها كعادتها في كلّ الأفكار متطرّفة بلا حدود وظللت أرفض أن أستعيد حتّى بين نفسي وبيني ما دار بيننا من حديث... عندما لاحظ عطّار الحيّ « جميل » الذي اعتدت أن أقضّي معه غالب العشايا أنّني أبدو على غير عادتي مهموما ومنشغلا وألحّ عليّ لمعرفة السّبب اضطررت إلى أن أعيد عليه ما دار بيننا و لكنّ النّدم بدأ يأكلني لأنّ صديقي أيّد كلّ تخمينات زوجتي !!!

- يقولون إنّ القوارض هي أوّل من يحسّ بالزّلازل، نحن التّجّار، قوارض أزمات المال والسّوق والبيع والشّراء. صدّقني لا أحد مثلنا يمكنه أن يرصد ويفهم حركة الدّفع والقبض وحالات الأزمات وما يسبقها وما يمكن أن تؤدّي إليه...

- ولكنّي أرى الأمور على ما يرام. النّاس يقبضون ويدفعون ويشترون ويــبيعون والرّخاء يعمّ الدّنيا.

- الأموال تتناقص بشكل لافت للانتباه. قريبا كما قالت زوجتك سنفيق على خبر فراغ البنوك... وستتوقّف الجرايات... عندها لن يكون هناك بيع ولا شراء ولا رخاء يعمّ الدّنيا.

- هكذا فجأة ستطير كلّ الأموال دفعة واحدة!؟

- لا. ليس هكذا فجأة. الأموال بدأت تسافر منذ زمن. تذهب ولا تعود. تذهب وتدعو بعضها بعضا.

- يخيفني كثيرا كلام زوجتي وكلامك ولكنّي لا أستطيع حتّى إن سلّمت بما تقولان أن احتاط بشيء. أنت مثلا، هل احتطت لهذا الذي تبدو متأكّدا من أنّه قادم لا محالة؟

ردّ جميل كأنّه كان ينتظر السّؤال:

- منذ عام أبطلت التّعامل بالنّسيئة ومنذ شهرين وأنا أكدّس الموادّ الأساسيّة في البيت وهنا في المخزن. تستطيع أن تقول إنّني احتطت لكم.

سألت زوجتي:

- هل فتح جميل مغازته اليوم؟

فقالت:

- رأيته جالسا أمامها و لكنّها كانت مغلقة.

- سأنام قليلا ثمّ أذهب إليه أتزوّد بموادّ أخرى قبل أن تشحّ السّلع وتخفّق أسعارها عاليا في السّماء.

أعرف جميلا منذ سنوات، أعرفه مذ جاء ينتصب بيننا وبدأ يجلبــنا إلى سلعه ويتقرّب إلينا بكؤوس الشّاي وأكواب العصير والخدمات السّريعة والمجاملات التي لا تنتهي.. لم يكن جميل عطّارا عاديّا فهو حاصل على شهادة الباكالوريا وهو طالب سابق بمقاعد الجامعة... التحق بها ولكنّه تركها بعد عامين دون أن يحقّق شيئا ممّا كان يصبو إليه أبوه.

قال لأبيه عامها:

- سأسكن مبــيت الطّلبة مع زملائي.

زمجر أبوه كأنّه استُفِزّ أو شُــتِم أو أُهِين :

- هذا لن يكون. سأكتري لك سكنا خاصّا قريبا من الجامعة وسأنتدب لك واحدة تقوم على أمور الطّبخ والغسيل والكيّ...

عندما أصبح في سكن مستقلّ وأصبحت فتيات كثيرات يطرقن بابه ليلا ونهارا وأصبح أصدقاء مقرّبون يشاركونه فتياته وأموال أبيه وسكنه الخاصّ وجلسات الشّراب، نسي جميل وعده لأبيه وقسمه الذي أدّاه أمامه يوم تسلّم مفتاح الدّار على أنّه سيكون عند حسن الظّنّ وفي مستوى المسؤوليّة... نسي مقاعد الجامعة والدّروس وأمست حياته خمرا ونساء... يصبح ويمسي على الشّرب ويصبح ويمسي على فتيات جميلات يقتنن من جيبه وموائده ولياليه. عندما أهلّت امتحانات آخر العام، نصحه أصحابه أن لا يجتاز أيّا منها

وأن يؤجّلها إلى العام الموالي... ولكن حبّ جميل للخمر وللنّساء زاد حتّى أصبح إدمانا ولم يستطع في العام الموالي أن ينجح في أيّ امتحان.

كان جلّ حديث أبي جميل مع النّاس عن ولده، عن ذكائه ونبوغه ومراتبه الأولى وحبّه الكتب وحبّ أساتذته له... كان يفخر به إلى درجة أن عاب عليه النّاس ذلك... وأصبحوا يتندّرون به. عندما أحسّ أنّه أصبح محلّ سخريّة جلسائه قال لهم:

- ستندمون... الأيّام بيننا... ستندمون عندما ترون جميلا بعد أربع أو خمس سنوات فقط أستاذا يملأ طريق المعهد ويتهافت عليه أبناؤكم لنيل رضاه... أو محاميا يحول بينكم وبين السّجن ويعيد إليكم كلّ حقوقكم الضّائعة... أو طبيبا ينقّب في أبدانكم الخربة عن الأمراض ويسكتها قبل أن تنطق.

عندما بلغ أباه نبأ فشله للمرّة الثانية، اغتمّ واهتمّ واعتلّ ومات.

قال له إخوته:

- تدبّر أمرك بنصيبك من الميراث. سافر وابدأ بعيدا عنّا حياة جديدة. أو تزوّج : اخطب لك فتاة تهدّئ سرّك وتلحقك بصفوف الرّجال.

كانوا يريدون أن يتخلّصوا منه وينظّفوه من ماضيه القريب بزوجة تمتصّ فورة شبابه أو بسفر يحطّ به في دنيا جديدة، ولكنّ جميلا لم يسافر ولم يتزوّج.

قالوا له:

- افتح لك نقطة بيع خمور... أو مغازة ملابس وعطور.

فكّر جميل وقدّر فوجد أن لا شيء أضمن في التّجارة من العطارة.

" لــن ينقطــع النّــاس عــن الأكـل في كلّ الأحوال... المَمّه* هي دائما شغل النّاس جميعــا،

ولا أحد في النّهاية يستطيع أن يستغني عن الأكل، سأفتح دكّان عطارة وسيأتيـني النّاس طوعا أو كرها."

اشترى جميل محلاّ يتوسّط الحيّ الكبير ورصّف فيه كلّ أصناف الموادّ الغذائيّة التي يحتاجها حرفاؤه وخفّض في كلّ الأسعار بما يجعله قانعا بنصف هامش الرّبح الذي يحصل عليه غيره من التّجّار... ثمّ شمّر على ساعد البيع.

بعد عامين من تاريخ انتصابه تاجرا للموادّ الغذائيّة، تقدّم لخطبة فتاة كانت زميلة له في الجامعة وتخرّجت منها بإجازة في

اللّغة العربيّة وآدابها. ولكنّ زمالته لها ويسر حالته لم يشفعا له عند أبيها.

قال له:

- ليس لديك عمل قارّ وأخاف على ابنتي أن تشقى معك وتتشرّد من بعدي.

وقال لها:

- لا شيء أفضل وأضمن من الوظيفة. مع رجل موظّف لن تجوعي ولن تعري ولن تفتقري إلى الأمان... إذا تزوّجت موظّفا كنت في حمى الدّولة.

استطاع سي حميدة أن يقنع ابنته بقليل من الفلسفة السّاذجة برفض جميل والتّفكير في شابّ موظّف. وبدأ الموظّفون بعدما وصل إليهم ما دار بين العمدة والتّاجر يتهافتون على ودّ نعيمة. تقدّم لخطبتها أعوان بريد... وأعوان أمن عموميّ ... وممرّضون، ومعلّمون...

قال لها العمدة:

- جرايات عون البريد والممرّض وعون الأمن الوطنيّ لن تكفيك لفطور الصّباح.

وفضّل عليهم وعلى آخرين سي عبد الجوّاد المعلّم.

اعترض طريقها ذات مساء "جميل" ووقف يذكّرها بسنوات المعهد وأيّام الجامعة وبمشروع الحبّ الذي اقترحه عليها ذات يوم فأجّلته.

قال لها:

- هراء هذه الوظيفة التي يشترطها أبوك في من سيتزوّجك. أبوك يفكّر بالمقلوب. يفضّل مكتبا في إحدى الإدارات وجراية يابسة لا تأتي عند آخر كلّ شهر إلا بعدما تكاد روح صاحبها تطلع من فرط الانتظار، على العمل الحرّ وما فيه من ربح حرّ... أنا مضطرّ لأن أقول لك مثلا إنّ موظّفي الحيّ لا يستطيعون أن ينهوا الشّهر سالمين من الجوع لولاي. أنا الذي أعطيهم خبزهم وتبغهم ومعاليم تنقّلهم وأنا الذي أتصدّى معهم أو بدلا عنهم إلى أزمات المرض وفواتير الماء ووجبات الضّيافة وحالات الولادة... تستطيعين أن تقولي إنّني أنا، جميل العطّار، دولتهم.

- ليس المهمّ أن تقنعني. المهمّ أن تقنع والدي. عندما تنجح في إقناعه، سأكون لك.

ولم ينجح جميل في إقناع العمدة. حشد له أنداده وأصحابه وكلّ الذين توسّم أنهم قادرون على التّأثير في رأيه... قال له: معي ستكون نعيمة بين يدين أمينتين.. أقسم له أنّه نادم على قتل أبيه وانّه لو كان يدري أنّه سيموت بسبب خمره ونسائه لما التفت إلى

الخمر وإلى النّساء... قال له: أنا أكسب أضعاف ما يكسبه الموظّفون الكبار... وليست لديّ مشاكل من أيّ نوع...

ولكنّ العمدة أصرّ على رفضه. للعمدة حبّ وتقدير للموظّفين لا حدود لهما. وللعمدة ثقة في إدارات الدّولة ليس كمثلها ثقة. ولدى العمدة رغبة في أن يصاهر رجلا" نظيفا" له معرّف وحيد وجراية قارّة لا تاجرا رزقه معلّق بالحظّ وبمدى رضا النّاس عنه وإقبالهم على بضاعته.

سدّ سي حميدة كلّ الأبواب أمام جميل وأسرع يزوّج ابنته معلّما حديث عهد بالمحفظة والجراية والحلاقة وربطة العنق. كانت نعيمة أجمل فتيات المدينة... عيناها أخذتا من البحر زرقته واتّساعه، وجهها يشبهه القمر في استدارته وجماله، شفتاها شهيّتان لا يستطيع من يقترب منهما أن يصمد أمامهما طويلا... بدنها مكتنز متناسق يثير في كلّ من يراه من أيّ زاوية أتاه فتنة كبرى...

كان عبد الجوّاد فارع الطّول فارغ البدن... تظهر لكلّ من يراه عظام وجهه وعظام كتفيه وضلوع صدره... في مقدّمة رأسه صلع مبكّر وفي عينيه ضيق واضح وعلى أطراف وجهه الكالح أبدا تتدلّى أذنان كبيرتان مرتخيتان.

لا يحمل سي عبد الجوّاد محفظة عاديّة بل يتعمّد أن يذهب إلى مدرسته بحقيبة ديبلوماسيّة سوداء كبيرة يبدو بها لمن يعترضه كأنّه يقصد محطّة القطار بغية السّفر... ولا يجد عبد الجوّاد حرجا في

أن يقطع طريق الذّهاب والإيّاب بين الدّار والمدرسة بمنديله الأبيض الفضفاض... عندما رأى نعيمة بنت العمدة أوّل مرّة جنّ، وعندما رآها ثانية ازداد جنونه وأصبحت لا تبرح خياله و أوراق دفتره وغلاف مكتبه ووسادة نومه وأحاديث صباحه ومسائه. فرح كثيرا عندما قيل له إنّها مجازة في اللغة العربية لأنّه يدرك أنّ إجازة من هذا النّوع ليس من شأنها أن تعلي من شأنها وتجعلها تترفّع أو تفضّل عليه غيره.

لم يكن لعبد الجوّاد رصيد بنكيّ يتّكئ عليه ولا موارد أخرى عدا جرايته يصرف منها على العرس. اقترض من البنك بعض آلاف الدّنانير وساعده العمدة بكلّ ما لديه ليُقام لنعيمة عرس لم تعرفه كلّ المدينة.

وظلّ عبد الجوّاد يقسّم ما تبقّى من جرايته بعد خصم الجزء الشّهريّ من مبلغ القرض بين معلوم الكراء وأهله البعيدين وحياته الرّتيبة.

زفّت إلى سي عبد الجوّاد نعيمة بنت العمدة وفضّل أن يظلّ أعزب عطّار الحيّ جميل ناذرا حياته للإذاعة والتّلفزة والكتب و البيع والشّراء وحرفاء المحلّ.

كانت نعيمة تعطف على والدها العمدة عطفا لا حدود له فقد عزف سي حميدة عن كلّ مباهج الدّنيا بعد موت زوجته وفضّل أن لا يعيش لغير العموديّة وابنته... تقدّمت لخطبته نساء كثيرات فرفضهنّ جميعا وظلّ لائذا بالصّبر... ألحّت عليه نعيمة عندما كبرت

وبدأت تدرك معنى أن يعيش رجل بلا امرأة أن يتزوّج... أن يختار واحدة تقاسمهما طول النّهار وتقاسمه وحدة الليل وتسدّ عليه الفراغ يوم يناديها المكتوب لتنتقل للعيش في دار جديدة... ولكنّ العمدة لم يهتمّ بما قالت بل أقنعها أنّه تعوّد على حياة التّرمّل وأنّه يشعر أن لا شيء ينقصه... عندما نالت ابنته شهادة الباكالوريا قال إنها نجحت لأنّه لم يشغلها بامرأة أخرى وعندما تخرّجت من الجامعة وعادت إليه بشهادة الأستاذيّة وبدأ يخطبها منه الرّجال قال اليوم أكمل واجبي نحوها وأرضي عنّي أمّها في قبرها.

-5-

قالت زوجتي وهي تراني أهمّ بالخروج:

- ستذهب مع الذّاهبين إلى الحيّ الإداري وسترمون واجهاته بالحجارة، ستصيحون إلى أن تبحّ حناجركم ثمّ تتّكؤون على الحيطان والسّيّارات وتظلّون هكذا إلى أن يجنّ اللّيل... ألا ترى أنّ ما تقومون به عبث لا فائدة منه؟

- بل هو عبث لا بدّ منه... و لكنّي الآن ذاهب إلى مغازة جميل... يجب أن أعثر عليه وأتحدّث معه... اسمعي ، لا داعي للشّاي والقهوة والفطور والعشاء... قسّمي ما في مطبخك على وجبات غداء فقط.

- بعض الجيران قرّروا أن يدخلوا في رمضان من الآن... سنقتصد وسينالنا الأجر... ما رأيك؟

- نحن لم نتعوّد أن نقتصد في رمضان... لا أرى الأمر مناسبا... لنقتصر على وجبات غداء فقط... سيكون أفضل.

كان المحلّ مقفلا ولكنّ صاحبه كان يجلس على كرسيّ أمامه يهشّ على العرق والحرارة والذّباب بمروحة يدويّة ويتلفّت يمنة ويسرة انتظارا وخوفا. رآني أتّجه إليه فأسرع يفتح الباب ويخرج كرسيّا ثمّ يحكم إغلاقه ويطلب منّي الجلوس.

تكاد العلاقة بين جميل وبيني تتجاوز علاقة التّاجر بالحريف. كلانا يدرك أنّ ما قرّب بيننا ليس البيع والشّراء بل تلك الجلسات المسائيّة المنتظمة التي تجمعنا أمام محلّه الذي بدأ دكّانا وأصبح مغازة حافلة بكلّ أنواع السّلع الاستهلاكيّة. نلتقي ونتحدّث حول النّاس وحول التّجارة والسّياسة والثّقافة وحول مسائل لا حصر لها.

انتظرت أن يكون أمام المحلّ زحمة كتلك التي وجدتها منذ يومين أمام مقرّ البنك. توقّعت الزّحمة لأنّني أدرك أنّ جميلا وكلّ تجّار المواد الغذائيّة أصبحوا هذه الأيّام قبلة الخلق.

قال جميل قبل حتّى أن يردّ على تحيّتي:

- هرّبت البارحة نصف ما كان في المغازة إلى البيت.
- وماذا ستفعل بالباقي؟
- أعتقد أنّ لكلّ الذين كانوا حرفائي حقّ فيه. سأواصل البيع بنفس الأسعار ولن أجبر واحدا من حرفائي على الدّفع. أنت مثلا ،تعال إليّ ليلا وخذ كلّ ما يحتاجه بيتك. تزوّد دفعة واحدة بكلّ حاجتك فعندما تنفذ السّلع لن يكون باستطاعتي أن أساعد بشيء.
- هل تعتقد أنّ الأزمة ستطول؟
- أنا متأكّد من أنّ المسألة ستتطلّب كثيرا من الوقت قبل أن تجد طريقها إلى الحلّ.

جاء جماعة آخرون و أقعوا على الأرض أمام جميل وبدؤوا يلمّحون لفراغ بيوتهم وفراغ جيوبهم وما بدأت عائلاتهم تعرفه من جوع. كانت وجوههم كالحة وكانت أعينهم غائرة وكان بأيديهم كالارتجاف.

قال جميل:

- غدا سأوزّع على كل حرفائي الذين كانوا قارّين كلّ ما لديّ من دقيق وكسكسي وملح وسكّر وبعض الموادّ الأخرى... ليس بوسعي أن أفعل أكثر... وبعدها سنكون جميعا عرضة للجوع... لا أحد سيكون أفضل من الآخر.

لا أحد صدّق أنّ جميلا سيوزّع كلّ ما عنده على حرفائه ولكنّ أحدا لم يجرؤ على الكلام... نهضوا جميعا والتفّوا به يشكرونه ويدعون بالخير له وبالوباء على من أفرغ جيوبهم وديارهم وحوّلهم من عمّال وموظّفين شبه محترمين إلى جياع يمدّون أيديهم من أجل رطل دقيق وقبضة ملح... ثمّ انصرفوا على أمل أن يعودوا إليه عندما يشتدّ الظّلام.

كانت السّاعة تشير إلى السّابعة مساء. مدّ جميل يده وشغّل جهاز الرّاديو الأسود المضطجع أمامه كجر ومريض فجاء صوت المذيع كالحا يابسا خاويا كأنّه يأتي من أعماق بئر لا قرار لها:

أيّها المواطنون، أيّتها المواطنات:

مازالت الجهود تبذل حثيثة لتتبّع العصابة التي استولت في غفلة منّا جميعا على كلّ أموالنا العامّة فأفرغت البنوك وعبّأت أرصدتها الخاصّة ووضعت البلاد في حالة عجز لم يسبقنا إليها أحد.

أيّها السّادة، أيّتها السّيّدات،

ليس بوسع أحد اليوم أن يغطّي عين الشّمس. الحقيقة ساطعة لا يحجبها شيء وعلينا أن نتأقلم مع وضعنا الجديد ريثما تصل المساعدات والقروض التي وعدنا بها.

نحن مطالبون الآن أكثر من أيّ وقت مضى بأن نتعاون ونتضامن ونحبّ لغيرنا ما نحبّ لأنفسنا. ليس الحلّ في التّجمّع بالأحياء الإداريّة ورشقها بالحجارة وإطلاق الهتافات والشّتائم... الحلّ في أن نبعد عن بعضنا البعض شبح الموت...

ثمّ ترك المذيع مكانه للشّيخ عبد الباسط عبد الصّمد ليرتّل في أناة وتؤدة: "... وتعاونوا على البرّ والتّقوى..." وترك جميل مكانه وقفز داخل المغازة ثمّ عاد إليّ بصندوق كرتونيّ فيه سكّر وعجين وبسكويت وزيت ودقيق.

- كم ثمن كلّ هذا يا جميل؟

- ليس هذا مهمّا الآن. المهمّ أن تصل إلى بيتك سالما.

حاذر أن يرى أحد ما في صندوقك. وغدا نلتقي.

كلامه أخافني. حملت الصّندوق وهرولت نحو البيت مجانبا الحيطان والأشجار. كنت مجاملة وخوفا ألقي السّلام على كلّ من يعترضني. أصبحت بعد كلام جميل أعتقد أنّ كلّ من سيراني سيفترسني وينقضّ على ما بين يديّ... مرتعدا وصلت إلى البيت... غير أنّ فرحة الجماعة بالصّندوق سكّنت بعض خوفي وأعادت إليّ بعض هدوئي.

ذوّبت زوجتي لكلّ منّا ملعقة سكّر في كأس ماء... شربنا الماء المحلّى... وارتمينا على أسرّتنا وأخذنا ندعو لجميل بالخير ولحانوته بدوام الرّخاء.

سألتني أمّ سميحة:

- ماذا سنفعل عندما نطبخ كلّ الدّقيق ونأكل كلّ التّمر ونشرب كلّ سكّر جميل ولا يبقى في البيت ولا خارجه شيء يؤكل؟

كنت أعرف أنّها ستلقي هذا السّؤال.

- عندها سيكون أمامنا حلّ واحد. نعود إلى ريفنا البعيد، نشرب الحليب ونسلق البيض ونأكل الخضر ونصطاد العصافير إلى أن يقال إنّ الأزمة حلّت وإنّ البنوك اشتغلت من جديد.

اطمأنّ عاصم وسميحة إلى هذا الحلّ الذي بدا لهما كفيلا بإبعاد شبح الموت عنّا، ولكنّ أمّهما لم تهدأ... سألتني وأنا أكاد أنام:

- وماذا سيفعل الآخرون عندما ينفذ دقيقهم وسكّرهم وخبزهم اليابس وأوراق أشجارهم وعشب حدائقهم ولا يبقى في ديارهم غير الآجر والاسمنت؟

- سيأكلون بعضهم بعضا.

ارتعدتْ. ومن مكاني على بعد مترين سمعت اصطكاك أسنانها وارتجاف ساقيها.

- الموت أهون.

- سيقتل الجوع كثيرين وسيضطرّ كثيرين آخرين إلى أكل لحم موتاهم أو من قارب من أحيائهم الموت.

-6-

بعد فراغ البنوك بسبعة أيّام، كفّ النّاس عن التّظاهر والهتاف والتّكسير والتّخريب وكفّوا حتى عن تكليم بعضهم بعضا...

بعد سبعة أيّام أخرى من همود النّاس، بدأت تنتشر أخبار الموت... موت الرّضّع والحوامل والمرضى والشّيوخ الذين كفّوا منذ حلّت الأزمة عن الأكل إيثارا على أنفسهم...

خلت الشّوارع من السيّاح والسيّارات والمارّة ولم يعد يُرى فيها غير أنفار قلائل يشيّعون الجنازات أو غير عائلات تقتلع أوراق الشّجر يحرّكون بها أضراسهم ويطردون بها من أفواههم روائح لحوم الجثث.

قلت لجميل:

- سأعود إلى ريفي الجميل. لم يعد لديّ ما يشدّني إلى هنا.

- بل ستنتظر قليلا. سمعت البارحة أنّ مساعدات غذائيّة في طريقها إلى البلاد وأنّ قرضين على أبواب الوصول إلى

البنك المركزي وأنّه سيتمّ توزيعهما في شكل منح تطال كلّ من بقي حيّا.

- في ريفي البعيد، لن أكون في حاجة إلى منحة ولا إلى مساعدة غذائيّة.

- لا أظنّ. الأرياف أيضا طالها البلاء، استهلك كلّ الخير الذي كان فيها وبدأ سكّانها يجوعون. تعال إليّ بعد منتصف النّهار، سيكون الشّارع خاليا وسأكون قد جلبت لك من مخزن الدّار صندوقا كرتونيّا فيه ما يكفيكم لأسبوع جديد.

- البارحة عرضت قناة ... ريبورتاجا حولنا. استمعت فيه إلى ذلك الجدل الغريب بين الذين يدافعون على اختيار أكل الأطفال حفاظا على حياة الكهول والشّيوخ وبين الذين يميلون إلى إعطاء فرصة الحياة للأطفال بإطعامهم لحوم كبار ذويهم... ورأيت فيه شوارعنا الخالية وإداراتنا المغلقة وجنائزنا المتتالية ورأيت فيه امرأة تلوك أغصانا طريّة ورجلا يطارد قطّا أسود ثمّ يمسكه ثمّ يخبّئه تحت إبطه ويعود به ركضا إلى بيته.

- وسمعت ما قال الذين استضافهم صاحب البرنامج؟

- لا. لم أسمع ممّا قالوه شيئا ولكنّ أمّ سميحة أخبرتني أنّهم أقسموا على أنّهم لم يفعلوا شيئا يندمون عليه وعلى أنّهم ليسوا مسؤولين عن الحالة التي وصلت إليها البلاد.

- أكثرهم اعتدالا قال إنّهم على الأقلّ ليسوا المسؤولين الوحيدين.

- ونحن، نحن الذين تحوّلنا إلى ديدان تنهش الجثث وإلى ماعز يعيش على أو راق الشّجر، ألم يحسّوا بنا؟ ألم يفكّروا فينا؟

- قالوا إنّهم يودّون إرسال مساعدات غذائيّة ولكنّهم لا يضمنون وصولها إلى الجوْعى الحقيقيّين.

سألتني زوجتي وأنا أدفع الباب وأدخل:

- هل سمعت آخر الأخبار...؟

- لا.

- أغلقت المستشفيات والمبيتات وسرّح الجنود وأغلقت ثكنات الجيش.

- وماذا أيضا ؟

- لم يبق لدينا شيء يؤكل.

- جميل يُــعدّ لنا صندوقا آخر. سأذهب لاستلامه عندما يخلو الطّريق.

- نذهب معك إن كنت تخاف أن يسطو عليك احد.

- لا أحد باستطاعته أن يسطو على أحد. اطمئنّي. سأعود إليك بالصّندوق سالما كاملا.

-7-

رنّ الهاتف.

قلت: هؤلاء أهلي من الرّيف.

قالت أمّ سميحة: هذه أختي من الجزائر.

قال عاصم: هذه كاترينا من فرنسا تطمئنّ عليّ وعليكم.

ولم تقل سميحة شيئا ولكنّها ذهبت إلى السّمّاعة وأمسكتها وسمعناها تقول:

- نعم.

-.....

- كيف حالكم؟ ما الجديد؟

-.....

- البركة فيكم. سنكون معكم بعد العصر.

لم يبد على سميحة أنّها تأثّرت كثيرا بالخبر. نقلته إلينا ببرود يشبه برود الموتى.

- أعلموني أنّ خطيبي عبد المعطي توفّي منذ أقلّ من ساعة وسيدفن بعد العصر.

لم نقل شيئا ولم نكلّف أنفسنا حتّى مشقّة تهوين الأمر على سميحة. شغّلنا التّلفزة وتركنا أحد المقرئين يتكلّم بدلا عنّا. أنصتنا بخشوع إلى سورة النّساء من أوّلها إلى آخرها ثم التفتت إليّ فريدة تسألني:

- ألن تعجّل بالذّهاب إلى جميل؟

- سأذهب. هات يدك لأنهض.

عندما أصبحت على مقربة من المغازة، رأيت الباب يفتح. قلت هذا جميل سيخرج ويدخلني. كان جميل وكانت وراء ظهره تتلفّت يمنة ويسرة نعيمة بنت العمدة زوجة سي عبد الجوّاد المعلّم. كانت يدها اليمنى ترتّب شعرها وثيابها فيما يدها اليسرى تقبض على كيس أسود متنفخ.

قال جميل:

- أهلا. تفضّل.

ولم يبد عليه أنّه ارتبك.

وقالت صاحبته الجميلة:

- أهلا سي محجوب. كيف حال سميحة وأمّ سميحة؟

ولم يبد عليها أنّ مجيئي أفزعها.

أغلق صاحبي الباب ودخلنا. اكتشفت أنّه كان قد صنع لها سريرا من صناديق الطّماطم وأكياس السّميد ووسادة من أرطال العجين... وعلى السّرير تناثرت بقايا البسكويت وأغلفة الشّوكولاطة وغبرة الحلقوم.

- اضطرّت إليك أخيرا؟

- جاءني أبوها منذ أيّام الجوع الأولى فاشترطت عليه أن يعود إليّ مع صهره ثمّ جاءاني معا فرحّبت بهما ووعدتهما بشرفي أن لا أدع أيّا منهم يجوع واشترطت فقط أن يرسلا إليّ نعيمة.

- وجاءتك؟

- منذ عشرة أيّام وهي تقضّي عندي القيلولة.

- مقابل كيس أسود منتفخ؟!

- وأشياء أخرى لم يعد زوجها قادرا عليها !

ولا أدري كيف وصل خبر اختلاء جميل ببنت العمدة إلى نساء الحيّ ونساء أخريات... قد يكون أحد رآهما فتحدّث بهما ثمّ انتشر الحديث... قد يكون بعضهم شكّ في حكاية هذا الباب الذي يفتح ويغلق في أوقات الظّهيرة وأعقاب اللّيالي... قد يكون ثمّة من لاحظ أنّ زوجة المعلّم حافظت على جمالها وتورّد خدّيها ولحم ردفيها وعلى نشاطها وخفّتها... المهمّ أنّ الخبر انتشر فأصبح مخزن جميل يستقبل فتيات بأعمار مختلفة ونساء متزوّجات يجئن على

مسمع ومرأى من بعولتهنّ... ولا أدري كيف وصل خبر زوجة المعلّم إلى عطّار آخر يقع محلّه في وسط المدينة... فجاء يتّفق معها وأصبح يأتيها مرّة كلّ ثلاثة أيّام محمّلا بسجائر لزوجها وللعمدة وبالجبن والشّكولاطة لابنها وابنتها وبالسّكر والعجين والملح والشّاي... المهمّ أنّ محلاّت الموادّ الغذائيّة في كلّ المدينة أصبحت ملاذ النّساء يقدّمن فيها لحمهنّ إلى التّجّار وصبيانهم مقابل أن تظلّ لحوم أزواجهنّ وذرّيتهنّ تنبض بالحياة.

دفنّا الشّابّ الذي كان سيصبح زوج سميحة واستمعنا إلى عويل أمّه وأخواته الخافت خفوت مواء القطط المريضة... وضعه أهله في حفرة لا تكاد تتّسع للوحة خشبيّة... لا أدري أين ذهب كلّ ذلك اللّحم وكلّ ذلك الشّحم اللّذين جاءنا يرفل فيهما منذ أسابيع قليلة... قال سأتزوّج... سأسحب مدّخراتي، شقاء روحي... وسأصرفها لأكمل نصف ديني... وأملأ ليلي بهجة... وأملأ دار والديّ صبيانا وبنات... ولكنّه لمّا فوجئ باختفاء كلّ ما ادّخر استبدّ به اليأس ثمّ لم يقو على مقاومة الجوع... فمات. ترك لأهله ما يكفيهم منه لبضع وجبات وذهب يختفي هيكلا عظميّا في إحدى الحفر.

قال أبوه:

- منذ يومين دفنّا جدّته... حفر لها بنفسه مثواها الأخير.

وقالت أمّه:

- لا أحد كان يتوقّع أن يموت الآن... كان لدينا رغم كلّ شيء أمل في أنّ البلاد ستبعث من جديد وفي أنّنا سنواصل الاستعداد لزفافه من حيث كنّا توقّفنا.

وقال أخوه:

عبد المعطي مات نعم، الموت مرّ نعم، ولكن لا أحد ينكر أنّ الموت هذه الأيّام أهون من الجوع.

استرقت النّظر إلى أخوات عبد المعطي فألفيت وجوههنّ مكتنزة، متوّردة، منيرة. حوّلت بصري إلى مؤخّراتهنّ فألفيتها شبعانة ملآنة كأن لم يمسسها شرّ ولا ضرّ، قلت هامسا لجميل وكان أصرّ على أن يحضر معي جنازة المرحوم:

- أيأتينك هؤلاء أيضا؟

فردّ بعد أن استرق النّظر إليهنّ:

- لا أتذكّر... ولكنّي لا أظنّ.

-8-

عندما تناهى إليّ ليلا و أنا أتأهّب للأرق رنين الهاتف، قلت:

- هؤلاء أهلي من الرّيف.

وقالت زوجتي:

- هذه أختي مديحة من الجزائر.

وقالت سميحة:

- هؤلاء صديقاتي يعزّينني في عبد المعطي.

وقال عاصم:

- هذه كاترينا من فرنسا تطمئنّ عليّ وعليكم.

ثمّ أمسك السّمّاعة:

- آلو.

..... -

.....

- Ne t'inquiète pas Katrina. Je te jure que mes parents, ma sœur et moi sommes encore vivants.

و لكنّ كاترينا لم تصدّقه. قالت له: أريد أن أتأكّد من حياة أختك وأبويك.

نهضنا إلى السّمّاعة واحدا واحدا. سلّمنا على صديقة عاصم وشكرناها على اهتمامها وأنصتنا إليها تحمد الله لأنّنا لم نمت بعد ثمّ أعدنا السّمّاعة إلى صاحبها وتركناهما يتحدّثان ويتناجيان ويتبادلان القبل والمجاملات والمشاريع والأحلام.

تعرّف عاصم على كاترينا عن طريق الإنترنات. أعجبها وأعجبته وأحبّها وأحبّته ودعته إليها فتحجّج بأعذار واهية فهمت منها أن لا طاقة له على تحمّل مصاريف السّفر فاستأذنت أهلها وجاءت إليه. الصّيف الماضي كانت هنا... لم نبذل لنحبّها ونألفها ونطمئنّ إليها مجهودا كبيرا. سريعا أصبحت منّا وأصبح بيننا وبينها خبز وملح وشاي وبحر وحكايات... وحبّ... ومشروع زواج. أذكر أنّها تركت فينا بعدما قضت معنا شهرا كاملا فراغا لم تستطع أن تسدّه حتّى هواتفها المتلاحقة ورسائلها الطّويلة.

غيّرت فينا كاترينا أشياء كثيرة...جعلتنا نحبّ الحياة و نؤمن أنّها جديرة بأن تُحَبّ رغم كلّ ما فيها و أنّها جديرة بأن تعاش رغم قساوتها وجعلتنا دون أن ندري نكره التّكلّف والغضب والانفعال.

أيّام بدأ عاصم يتردّد على مراكز الإنترنات الخاصّة والعامّة ويظلّ فيها من الصّباح إلى منتصف النّهار ومن بعد منتصف النّهار إلى أوّل الليل، أيّامها أحسّت أمّه وأحسست معها أنّ همّا ثقيلا بدأ ينزاح عنّا. سكت عن عاصم غضبه وخفّ هيجانه وقلّ أرقه وارتفعت شهيّته وأصبح بشرا سويّا. ثمّ ساقت إليه الإنترنات صديقته الفرنسيّة فنسي بطالته وسآمة وقته وفراغ جيوبه وصفت عيناه وتورّدت وجنتاه وأصبحنا نرى على وجهه ابتسامات عريضة يوزّعها بيننا بلا سبب أحيانا... قبل أن نراها وقبل أن تكون في حياتنا شيئا، أحببناها، وتعلّقنا بها، وشعرنا أنّنا مدينون لها بحياة عاصم. قلنا عنها بعد ذلك إنّها أنقذت ابننا مرّتين، أنقذته عندما قبلت صداقته وظهرت نورا أشعّ في حياته المظلمة وأنقذته يوم جاءت من فرنسا وقالت له تعال معي إلى مدينة لا تجوع فيها ولا تعرى ولا تأكل فيها لحوم الدّواب المريضة والجثث الجائعة وأوراق الشّجر وعشب الحدائق... تعال معي إلى عالم لا يسرق فيه الجياع ثمّ يقال لهم " اصبروا و صابروا ورابطوا... " و " تعاونوا..."

و " تعالوا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض..."

قالت لي ذات مساء:

- جئتك خاطبة راغبة في فتى الحسب والنّسب.
- تقصدين فتى الإنترنات ؟!

ضحكت.

- ماذا قلت؟

- يجب أن أستشيره وأن أستشير أهلنا جميعا وأن أسأل كلّ فتاة من أقاربي وأقارب أمّه إن كانت هي الأخرى ترغب فيه !

وضحكنا.

قال عاصم:

- كاترينا قادمة.

ردّت أمّه كالمنفعلة:

- لا أرى الوقت مناسبا لاستقبال أيّ كان. نحن نعيش على صناديق "جميل "ونتناول " وجبة" في الأربع وعشرين ساعة.

- حاولت أن أفهمها ذلك كلّه ولكنّها أصرّت على المجيء. غدا مساء ستكون هنا.

وجاءت كاترينا.

جاءت محمّلة بالدّواء وبالحلوى والبسكويت والخبز وبعلب التّبغ وشرائح اللّحم وبعلب التنّ والمربّى والجبن

+وبدقلة النّور وبزيت الزّيتون.

قالوا لها في المطار هناك:

- ذهابك مغامرة. سيأكلك العرب.

فردّت عليهم:

- العرب لا يأكلون الآخرين.

قالوا لها:

- ستندمين.

فردّت عليهم:

- سأندم إن بقيت مكتوفة الأيدي هنا. يجب أن أفعل شيئا. يجب أن أقف بنفسي على عائلة فتاي، ولو استدعى الأمر أن أنقلهم إلى فرنسا سأنقلهم.

قالوا لها:

- لدينا هنا في المطار كلاب مدرّبة. ادفعي معلوم تأمين واحد منهم واستعيريه. تستأنسين به وتهشّين به على من يطمع فيك وتكون لك فيه مآرب عدّة.

فصاحت فيهم:

- هم جوعى، موتى يتحرّكون، جثث تتنفّس، هل يخيف الموتى؟ هل أستعير كلبا مدرّبا لجثث تتنفّس؟

وزّعت زوجتي على من بقي حيّا من الجيران قطع حلوى وقطع سكّر وصندوقا من البسكويت ووضعت تمرة في كلّ فم من أفواههم وقالت لهم:

- ادعوا لفرنسا بالخير.

فدعوا بالخير لـلعَكْري* ولها ولعاصم ولكاترينا و للإنترنات. ثم وضعت في كيس أسود علبتي تبغ و ربع لتر من العسل وصندوق شوكولاطة وقالت: " هذا نصيب جميل".

هتف إليها أبوها بعد ساعات قليلة من وصولها:

- كيف وجدت عائلة فتاك؟

- فتاي وعائلته أحياء.

- هذا جميل. وهل الوضع كما صوّرته ريبورتاجات تلفزاتنا وجرائدنا ؟

- تصوّر، لم يبق في كلّ المدينة غصن أخضر ولا أوراق شجر... لم تنج من الذّبح والافتراس كلّ فصائل الحيوانات... لم تنج كلّ جثث الأيّام الأخيرة من الهبر... يطبخون لحمها في ماء وملح ويضعون عليه حبقا أو نعناعا ويأكلونه.

- وماذا يفعل النّاس هناك؟

- يأكلون بعضهم ويدفنون بقاياهم.

- أعني هل يشتغلون؟ هل يؤمّون مواقع أعمالهم؟

- كلّ الإدارات، كلّ الأسواق، كلّ المحلاّت مغلقة، والموت على عتبات كلّ البيوت.

- ستعودين سريعا ؟

- بعد ثلاثة أيام.

لأوّل مرّة، منذ أصبحنا على فاجعة اختفاء كلّ أموال البلاد، لأوّل مرّة، ننام زوجتي وأنا على سرير واحد. لأوّل مرّة منذ أن حلّت الكارثة نمنا كما كنّا ننام أيّام العرس الأولى... شكرا لك كاترينا...

شكرا للعكري التي أنجبتك... شكرا للإنترنات التي جلبتك... مجيئك كاترينا أنسانا روائح الجثث ومناظر الجنازات... وحرّرنا ولو لحين من مزايا جميل ومسلسل الوجبة الواحدة.

قالت لعاصم:

- ستأتي معي، لن أعود إلاّ وأنت معي. معي ستبدأ حياة جديدة، حياة أخرى... ستشتغل وستنهي مرحلة تعليمك الثّالثة...

ولم يفكّر عاصم طويلا. لم يكن أمامه خيار آخر ولم يكن هناك ما يدعونا إلى أن نقف – أمّه وأخته وأنا- في طريقه.

قلنا لها جميعا:

- خذيه معك. ولا تشغلا باليكما بنا. نحن لن نظلّ هكذا. الأمور تصير نحو الحلّ... قريبا جدّا تأتيكم عنّا أخبار جيّدة.

ما أسوأ الكذب المفضوح، ما أسوأ الكذب الذي يدري قائله ويدري سامعه أنّه كذب. ما أسوأ أن تكذب على من يعرف جيّدا أنّ الحقيقة ليست ما تقوله أنت بل الحقيقة ما يدريه هو.

قبل أن ترحل، دفعت إليّ كاترينا بمبلغ ماليّ محترم، وبورقة عليها أرقام هواتفها... ووعدت بأنها ستظلّ تتّصل لتطمئنّ... ثمّ مضت، ومضى يتبعها فتاها الذي أنقذته الإنترنات من الموت وقدّمت له على طبق حوريّة من حوريّات أوروبّا وهيّأت له أن يعيش في أرض لا يأكل فيها النّاس بعضهم بعضا ولا قططهم ولا أوراق أشجاره

-9-

قال جميل:

- سأتدرّب على الإنترنات أنا أيضا !

- أنت، قلت له، لديك ما هو أهمّ من الإنترنات، لديك أكياس السّميد وأرطال العجين والسّكر وصناديق الشّوكولاطة.

- ألم أخبرك ما حدث البارحة؟

- لا.

- اقتحموا محلّي وأخذوا منه نصف ما كان فيه من موادّ غذائيّة.

- كيف ومتى تفطّنت إلى ذلك؟

- جئت فجرا لأفتح المحلّ وأنتظر مقدم نعيمة، ولكنّي فوجئت بالباب مفتوحا... دخلت فاكتشفت أنّ سريري طار وأنّ وسادتي لم يبق لها أثر...

- وجاءت صاحبتك؟

- وهل تظنّ أنّها تتخلّف عن المجيء ؟ أيقظت زوجها للصّلاة وخرجت من أمامه، وجاءت.

- وحدها؟
- أصبحت تأتيني أحيانا مصحوبة بأخت زوجها.
- أخت عبد الجوّاد.
- أخت عبد الجوّاد !
- و من حسب رأيك تجرّأ و اقتحم المحلّ؟
- هذا ليس مهمّا. المهمّ أنّني اهتديت إلى تهريب كثير ممّا كان فيه إلى البيت.
- الآن فهمت لماذا قيل إنّ مساعدات غذائيّة وصلت وستوزّع على من بقي حيّا من النّاس.

لست أدري لماذا ربطت اقتحام محلاّت الموادّ الغذائيّة سرقتها بالمساعدات التي قيل إنّها ستوزّع و لم يسألني جميل عن ذلك ولكنّي متأكّد من أنّ ربطي بين الإثنين لا يجانب الصّواب كثيرا. اكتشفت أنّني أنا أيضا بدأت أفكّر تماما كما تفكّر فريدة زوجتي، فدغدغت شفتيّ ضحكة أسرعت أخفيها عن جميل و أعود إلى البيت.

وأنا أدفع الباب وأدلف إلى الدّاخل ، سمعت الهاتف يرنّ سمعت زوجتي تقول:

- هذه أختي مديحة من الجزائر.

ثمّ قالت سميحة:

- هذا عاصم يطمئنّ علينا من فرنسا.

فأسرعت أقول:

- هؤلاء أهلي من الرّيف.

ثمّ رفعت السّماعة. ومن مسافة أربع مئة كيلومتر، كان أبي.

- كيف حالكم؟

- بخير. بخير أبي. وأنتم، كيف أنتم؟

- سأزوركم غدا. وسأنقلكم معي إلى القرية نكمل بقيّة الأيّام معا.

بتنــا نقلّب مسألة الرّحيل على جوانبها العديدة.

قالت زوجتي:

- سنرهقهم ونحمّلهم ما لا طاقة لهم بتحمّله.

وقالت سميحة:

- قد لا يطول بقاؤنا عندهم. الأخبار تدور حول قرب انفراج الأزمة.

وقلت لهما:

هم أهلي. ولا خيار لنا اليوم غيرهم. صناديق جميل لن تستمرّ طويلا. عاصم وكاترين لن يعودا قبل الصّيف القادم. وما عندنا في البيت قد لا يكفي ثلاثتنا لعشرة أيّام أخرى.

سأطلب من الحاج أن يأخذكما ويدعني. سنفترق، نعم. ولكنّنا سنكون أخفّ على أهلي وسنمدّ عمر الموادّ الباقية هنا.

وجاء أبي.

طرق الباب ففتحنا له. اقتربنا منه فابتعد عنّا. مددنا له أيدينا بلهفة فبادلنا يدا متردّدة متكاسلة وهو يحملق فينا بعينين فيهما ريبة وتردّد لم نعهدهما.

قال:

- أنت محجوب ؟

قلت:

- نعم.

- وأنت امرأته؟

قالت:

- نعم.

- وأنت ابنتهما سميحة؟

- نعم.

- وأين رابعكم؟

- في فرنسا. جاءت صديقته وأخذته إلى هناك.

وقتها فقط، فهمت أنّ صناديق جميل وعلب كاترينا وما اشتريته بما كان عندي من نقود، فهمت أن كلّ ذلك لم يفعل لنا شيئا سوى أن أبطأ الموت عنّا.يومها خفت. خفت فعلا. خفت كما لم أخف أبدا. يومها أدركت أنّه كان يمكن أن نموت نحن أيضا. يومها أدركت أنّ الحقيقة تكمن دائما في عيون الآخرين. جاء أبي من بعيد ليضعنا أمام حقيقتنا، وليقول إنّه لولا إنّه متأكّد من أنّه يطرق باب ولده،

لاعتذر وخرج يبحث عنّا في مكان آخر... للحظة، تراءى لي الموت يفترس واحدا منّا وتراءت لي أفكاكنا تلوك في مرارة وإصرار قطعة لحم من كتفه... أو رقبته... أو إليته... دخلت جريا إلى الحمّام... وضعت رأسي تحت الماء... فركته بعنف ليعبر الماء إلى داخله ويغسله ويمحو ما بدأ يدور فيه من أفكار خبيثة منذ قال أبي: أنتم لستم أنتم.

لم يترك لي ما زرعه فيّ كلام الحاج من خوف شهيّة لحليبه وخضره وبيضه وطيور حمامه... طبخت لنا زوجتي غداء... لأوّل مرّة منذ حلّت بالبلاد أزمة فراغ البنوك، لأوّل مرّة منذ اشتدّ الجوع، لأوّل مرّة نطبخ غداء، لأوّل مرّة، نتغذّى أكلا ساخنا عليه خضر ولحم... أكلت الكسكسي وحرّكت نصيبي من اللّحم في اتّجاه أبي. قال لا. وأصرّ. حرّكته في اتّجاه زوجتي، أقسمت أنّه لي. غمزت للبنت بطرف عيني فرفضت بأدب عرضي.

- كل نصيبك، قال أبي، أم تراك نسيت كيف يؤكل اللّحم ؟

تراءى لي صدر الحمامة هبرة من كتف عاصم أو من ساق أخته أو من ذراع أمّه... صوّره لي كلام أبي لحمة منّي، يطبخها الجماعة في ماء وملح ويلوك كلّ منهم نصيبه منها طويلا قبل أن يبعث بها إلى معدته الخاوية... على مضض نهشت صدر الحمامة، وعلى مضض لكته ولكته ولكته ثمّ ابتلعته.

كنت تخدعني يا جميل. كنت تردّد على مسمعي كلّ يوم:

- وجهك والله كالبدر. لم يتغيّر فيه شيء. لم تؤثّر فيه أزمة الجوع ولا مسلسل الموت الطّويل.

كنت أردّ عليك:

- أنت تبالغ.

فتقسم لي أنّك لا تقول غير الحقّ.

ربّما لم تكن تكذب. ربّما لم تكن تبالغ. ربّما لم تكن تجامل. ربّما كنت تراني كما قلت لأنّني لم أغب عن عينيك يوما واحدا ولأنّ الحقيقة تأتي دائما من بعيد.

كان يجب أن أعرف. كان يجب أن أعرف من تسارع دقّات قلبي و جفاف حنجرتي وأرقي الدّائم وعزوفي عن الفراش أنّني لم أعد غير ميّت يحيا، جثّة تتنفّس، مضغة من اللّحم لا تموت ولا تحيا... كان يجب أن أعرف... كان يجب أن لا يفاجئني كلام أبي... ربّما كان يجب أن لا يفاجَأ بل أن يشعر بالفرح لأنّه عثر علينا أحياء ... نتنفّس ونتكلّم وننام ونصحو ويقبّل بعضنا بعضا أحيانا... كان يجب أن يطير الحاج فرحا لأنّنا مازلنا نأكل من صناديق جميل وممّا جلبته معها كاترينا... لأنّنا لم نأكل بعد شيئا آخر... شيئا مرّا يطبخ في الماء والملح وتلوكه الأضراس طويلا طويلا ثمّ تبعث به إلى المعدات...

قال:

- ستأتون معي.

قلت له:

- خذ معك سميحة وأمّها ودعني هنا أحرس البيت وأنتظر هواتف عاصم وكاترينا وأعيش على صناديق جميل.

لا أدري لماذا فكّرت عندما قلت " أعيش على صناديق جميـل " أنّني وبنت العمدة، أنّني والنّساء اللاتي يأتين جميلا ليقايضن لحمهنّ بأرطال السّميد والعجين وبسجائر لأزواجهنّ وآبائهنّ... أنّني وإيّاهنّ سواء !!! هذه مصيبة.

تذكّرت نعيمة زوجة سي عبد الجوّاد المعلّم التي لمّا رأتني، لم تفزع ولم تشهق ولم ترتبك ولم تتوار ولم تُمهْمه بشيء كالاعتذار... ضحكت وسلّمت عليّ وسألتني عن الأحوال... تذكّرتها فخفت أن يكون تفكيرها قد ذهب بها بعيدا فأصبحت تظنّ بي وبأهلي الظّنون... قل لها يا جميل، قل لها إنّني صديق قديم... وحريف قارّ... وإنّني لا أقايض على صناديقك بشيء... بل آخذها باسم ما بيننا من مودّة... ومن شاي... ومن حكايات... قل لها يا جميل، وقل لهنّ جميعا...

سأل صاحبي صاحبته منذ أيّام:

- هل كنت ستدخلين مغازتي وهل كنت سأنال منك كلّ هذا الخير الوفير لولا هذه الأزمة... لو لم تتوقّف البنوك... لو بقي سي عبد الجواد يقبض كلّ آخر شهر جرايته القّارّة المضمونة التي

يقول أبوك إنّها لا تستأخر ولا تستقدم ولا يمسّ صاحبها شـــرّ ولا ضــرّ !؟

فاجأته.

قالت له:

- كنت سآتيك. وكنت سأعطيك... حتّى لو تواصلت الجراية القارّة... المضمونة! أنا لم أشعر بالارتياح لهذا الرّجل الذي اختاره لي العمدة يوما واحدا. كان يمكن أن أحبّه وأن أتعوّد عليه وأن تمتدّ بيني وبينه ألفة ومودّة... ولكنّ شيئا ممّا كان ممكنا لم يحدث... عوّدني العمدة على كرمه... عوّدني العمدة على تلبية طلباتي الصّغيرة والكبيرة... لم ينهرني يوما... ولم يقل لي يوما أفّ. مع زوج الجراية القارّة والمضمونة، فوجئت بنمط عيش جديد وبعلاقات أخرى لم أكن أتوقّعها... لم أكن أتوقّع أبدا أن يضعني اختيار أبي مع " رجل " لا يعرف من الفراش غير قضاء وطره على عجل ولا يعرف من الحديث غير الأوامر والنّواهي ولا يترك لنا من جرايته القارّة والمضمونة – كما يقول أبي – غير نصفها، فيما نصفها الآخر يسافر إلى أهله الميسورين... الآن بعدما عرفتك أنت ازداد كرهي له. صدّقني أصبحت أتمنّى موته.

- هل يعني هذا أنّك نادمة لأنّك رفضتني ؟

- أنا لم أرفضك... العمدة وقف بيننا، وكان عليّ أن أختار... واخترت رضاه... أرضيته بزواجي من عبد الجوّاد... ثم شاءت

البنوك أن أرضيك أنت أيضا. أعرف يا جميل، أعرف أنّك تفعل معي كلّ ما تفعل بدافع الانتقام، منّي ومن عبد الجوّاد ومن العمدة... رأيت ذلك في السّرير الذي صنعته لي، وفي عينيك وأنت تعطيني الكيس الأسود اليوميّ... ورأيت ذلك فيك ونحن معا.

- صدّقيني، ليس انتقاما منك... أنت كنت مغلوبة على أمرك...ولكنّي لا أستطيع أن أنكر أنّني بخلاف النّاس، ارتحت لأزمة المال و إغلاق البنوك وتوقّف الجرايات... لأنّها ساقتك إليّ... وساقت إليّ زوجك وأباك... المعلّم والعمدة، المعلّم صاحب المنديل الأبيض والعمدة صاحب الجبّة الرّقطاء.

هل أصارحك بشيء آخر ؟ وقولي بعد ذلك إنّني غريب الأطوار، قولي إنّني أسود من الدّاخل... قولي إنّني أكظم الغيظ ولا أنساه... قولي ما شئت... لو لم أكن أعرف أنّني أعاشرك على شبه مرأى ومسمع منهما لما وجدت لكلّ ما يجري بيننا – رغم كلّ جمالك وكلّ كرمك– لذّة تذكر.

بات أبي ليلته تلك معنا. في نفسي قلت: أبي لا يأتي دائما. قد يكون هذا العشاء هو الأخير معه. قد تكون هذه اللّيلة وهذه الحكايا التي تتناسل من ذاكرته تباعا هي الأخيرة بيننا. لا أدري لماذا فكّرت بذلك ولكنّي متأكّد أنّ أزمة الجوع حوّلت تفكير النّاس جميعا إلى وجهة واحدة.

حدّثنا أبي عن كاترينا التي تركت أهلها وبلادها ودنياها وجاءت تطمئنّ على عاصم وعلينا... حدّثناه عن النّاس الذين أصبحوا يعوّدون أضراسهم ومعداتهم على الحلو والمرّ، على ما يؤكل وما لا يؤكل... لأجل أن يظلّوا أحياء أيّاما إضافيّة أخرى. حدّثناه عن كرم جميل وعن فضل صناديقه المتتالية في بقائنا تتنفّس... وتتكلّم... وتتحرّك... كالأحياء.

وحدّثَـنا أبي عن الحياة في الرّيف... قال إنّ الأزمة طالتهم أيضا هناك... و إنّ النّاس بدؤوا يموتون من الجوع.

- نحن، قال، في أريافنا البعيدة متوكّلون منذ خلقنا على اللّه... أمر الجرايات والبنوك والقروض لا يعنينا في شيء. صحيح أنّنا ندفع مثلكم... ولكنّنا لا نقبض شيئا.

في الصّباح، جاءت سيّارة وحملت أبي وزوجتي وابنتي التي كانت ستنتقل إلى دار عريسها فانتقل عريسها إلى حفرة وهجّت هي إلى ريف بعيد... وبقيت وحيدا، ألوك ذكرياتي وأستمع إلى عبد الباسط عبد الصّمد وأتلهّى بمغامرات جميل وأقسّم السّكّر والبسكويت والجبن على وجبات لا يبدو– إن لم يفضّ الموت النّزاع – أنّ لها آخرا.

كذبت عليهم – وأنا نادرا ما أمارس الكذب – عندما قلت لهم:

- سألتحق بكم بعد يومين.

صدّقني أبي حتّى إنّه لم يجد داعيا لتوديعي وبدا على سميحة أنّها صدّقتني. وحدها زوجتي أدركت أنّني أقول ذلك شدّا على قلبي وقلوبهم.

-9-

جاءني جميل بكيس آخر وبخبر جديد وبعرض قال إنّه مغر. فتحت الكيس فوجدت فيه كسرة أحضرتها له إحدى نسائه الكثيرات وعلبة تنّ ونصف رطل من الحلوى الشاميّة وقطعا من الجبن... فتحت روحي وخبّأت في واحد من دهاليزها خيرات جميل وأحكمت إغلاق الدّهليز وأنا أشعر بالفرح يملأني من رأسي إلى قدميّ لأنّه مازال بوسعي أن أعيش أيّاما إضافيّة أخرى... ما زال بإمكاني أن أحلم بلقاء عاصم... وكاترينا... واحتضانهما، وبتقبيل فريدة وبضمّ سميحة وبالاستماع إلى حكايا أبي.

كلّ يوم أتأكّد فيه أنّني ما زلت حيّا هو خطوة أخرى نحو اجتماع شملنا من جديد... نحو انبعاث المدينة حيّة تسعى... من جديد.

قال جميل:

- هل ابدأ بالعرض أم بالخبر ؟
- ابدأ بالخبر.
- نعيمة أخبرتني البارحة....
- أصبحت تقضّي معك اللّيل أيضا؟
- تركت ولدها عند ابنتها وأوصت بالاثنين أباهما وجدّهما خيرا وجاءت.
- هيه، ماذا أخبرتك؟
- أحدهم أكّد لأبيها أنّ الطّواحين ستشتغل من جديد وأنّ البلاد ستستعيد قريبا جدّا نشاطها وأنّ حرفاء البنوك سيكون بإمكانهم سحب مستحقّاتهم.
- هكذا، بعصا موسى؟
- ستحلّ بيننا قريبا شركات ماليّة أجنبيّة وستعيد تشغيل البنوك. سيعود النّاس إلى أعمالهم وستعود إليهم جراياتهم.
- هذه كارثة.
- ستعيد شركات أجنبيّة تسيير البلاد لمدّة عامين تسلّم إثرهما المقاليد وترحل.
- هذه مصيبة.
- لماذا مصيبة ؟ بحلول الشّركات الأجنبيّة لن يجوع النّاس ولن يعروا ولن يموتوا هذه الميتات الرّخيصة السّاذجة ولن يتشتّت شمل العائلات ولن تضطرّ النّسوة إلى الأكل بلحمهنّ.

- ولكنّ مسألة العامين هذه خدعة. سيصبح العامان أربعة وسيصبح الأربعة عقدا.

قبلت الكيس وسمعت الخبر الجديد بكلّ تفاصيله وأعرضت عن سماع عرض جميل. شعرت بألم حادّ في شقّ رأسي الأيمن وبوخز حارّ في بؤبؤ عينيّ. لم أفهم ممّا استمرّ صاحبي يقوله شيئا... نهضت مترنّحا في اتّجاه علبة الدّواء... ابتلعت حبّة Tranxène وعدت إلى بيتي أستلقي أمام جهاز التّلفزة... أطلّ المذيع فعاودني من خلاله بعض كلام جميل... دفنت رأسي تحت الوسادة وبدأت أهمد. وأنا بين الهمود وأعقاب اليقظة أمرتني نفسي أن أستحضر الشّهادتين. استغفرت ربّي و شهدت أن لا إله إلاّ هو و أنّ محمّدا عبده و رسوله. غمرني اهتدائي إلى الشّهادتين في الوقت المناسب باطمئنان عارم. لا يمكن أن يكون الألم الذي في رأسي ألما عابرا سيمرّ بسلام. لا يمكن أن يكون إلاّ ألم الموت.

قال صاحبي:

- تعال معي نجوب أشلاء المدينة ونرى معا سرّ هذا الحراك الذي أصبح يدبّ فيها وسرّ هذه الأصوات التي يتردّد صداها منذ الصّباح.

لم تكن الشّوارع خالية ولم يكن في وسط المدينة هدوءه الذي ساده منذ اليوم السّابع للجوع. سيّارات غريبة تتنقّل بين مختلف مباني الحيّ الإداري وعمّال بأزياء حمراء وزرقاء وبخوذات صفراء

يتسلّقون السّلالم، ينزلون لافتات البنوك وشعاراتها القديمة ويركّبون مكانها لافتات أخرى بلغات فرنسيّة و انقليزيّة وعبريّة... ثمّ ينزعون كلّ الأبواب ويركّبون بدلا عنها أبوابا حديديّة بيضاء جديدة.

اقتربنا من رجل لا يلبس زيّا أحمر وأزرق ولا خوذة صفراء وسألناه:

- هل ستشتغل البنوك من جديد؟

- نعم. قريبا جدّا سيكون بإمكانكم أن تسحبوا مستحقّاتكم وأن تتمتّعوا أوّل كلّ شهر بجراياتكم... كلّ الإدارات والمعامل والمصانع والمحلاّت ستفتح أبوابها من جديد وعلى كلّ أحياء المدينة أن يلتحقوا بمواقع أعمالهم.

سألت الرّجل الأنيق:

- هل سيصبح ممكنا أن أسحب مبلغ القرض الذي وعدت به قبل النّكبة؟

- كن مطمئنا. ستعود الأمور خيرا ممّا كانت عليه.

- وتتمّ استعداداتنا لحفل زفاف سميحة؟

- من سميحة؟

لكزني جميل ونظر في عينيّ شزرا... ابتسمت للرّجل ابتسامة باهتة وانصرفت. ركبني الخجل منه ومن صاحبي ومن نفسي. ما دخل الرّجل الأنيق بعرس سميحة؟ وكيف نزوّج سميحة إذا كنّا قد دفنّا خطيبها عبد المعطي وترحّمنا على روحه وعلى لحمه

الذي وارياه التّراب ولحمه الذي استبقاه أهله وجبات لهم؟ خطوة أكيدة أخرى نحو الموت. الألم في عيني والألم في شقّ رأسي الأيمن والخلط بين الحقيقة والخيال. أيقظني الخجل. نزّ منّي عرق بارد ملأ أخاديد جبيني وتسلّل إلى عينيّ فأحرقهما وأيقظني. أيقظني عرق الخجل ويقيني بأنّي اقتربت من الموت خطوة أخرى. أخذت أحرّك أطرافي طرفا طرفا لأتأكّد من أنّها تتحرّك. فتحت عينيّ فانفتحتا وأجلتهما في فضاء الغرفة فتأكّدت أنّهما تبصران. ثمّ حرّكت يديّ فتحرّكتا... رفعت ساقيّ في الهواء فارتفعتا... عدت إلى أعلى، جعلت أحرّك رقبتي يمينا وشمالا ثمّ وضعت أطراف أصابعي على موقع الألم في رأسي أتأكّد إن كان طلع منه نتوء مّا... ثمّ نهضت وأبدلت خطوتي... ومشيت... اتّجهت نحو المخبأ الذي أحتفظ فيه بأسباب حياتي، بأيّامي الإضافيّة الأخرى... تربّعت أمامه و فتحته... وقلت أحتفل بنجاتي. أخرجت قرص شكولاطة ونصف قطعة جبن وحبّة زيتون أسود... وبدأت أحتفل. أذوق من كلّ صنف بطرف... أقضم من هذا وأقضم من ذاك... أمصّ من الحلو، ومن المالح، ثمّ أخلط بين الحلو والمالح و أمصّهما معا...

في غمرة انتشائي بالنّجاة التي لم أكن أتوقّعها، سمعت طرقا على الباب، أسرعت أعيد ما بقي على المائدة إلى المخبأ وذهبت أفتح لجميل.

- كلّ متني. هذه هي المرّة العاشرة التي أقف فيها أمام بابك طارقا.

- لم أسمع شيئا. عندما كنت معي تركتك تتحدّث وابتلعت دواء مهدّئا دخلت بعده سريعا في موت امتدّ على عشر ساعات.

- كان يمكن أن لا أجدك حيّا إذن؟!

- كم أحسدك يا جميل! مازال بوسعك أن تمزح؟

- أنت أيضا بإمكانك أن تمزح وتضحك ملء شدقيك. أوّلا لأنّك حيّ تر – وسحب جميل بقية الكلمة حتّى لا أسيء به الظنّ فأفهم أنّه هو من يرزقني – ثانيا، لأنّ عائلتك من العائلات القليلة التي راوغت الموت وفرّت منه، هجّ عاصم بعيدا عن الهمّ وتركت زوجتك وابنتك مدينة الموت إلى ريفك الجميل...

- قد لا يسمعني أحد أضحك خلال كلّ عمري الباقي.

- ليس إلى هذا الحدّ... ستضحك وستتمتّع وستحلو لك الأيّام. تعرف ؟ الذين ماتوا وفّروا على البلد مصاريف كثيرة... لن تكون لدى الذين بقوا أحياء أزمة في الشّغل ولا زحمة على الإدارات والمحلاّت ووسائل النّقل والأسواق. سيتغيّر وجه البلاد.

- ألا يمكن أن يتغيّر هذا الوجه إلاّ بعد ما يأكلنا الجوع ونأكل نحن لحم بعضنا بعضا؟

- دعنا من هذا. ما رأيك في نعيمة ؟

- نعيمة من ؟

- نعيمة بنت العمدة، ستأتيك... أنا مللتها، عوّضتني عنها أخت زوجها وأخريات. وأنت وحيد وحزين... ويائس... ستضخّ فيك دماء جديدة وستنسيك قلقك وأرقك ورتابة أيّامك.

عاودني الألم في رأسي. عاودني في نفس الموقع من الشّقّ الأيمن... للحظة، تراءى لي سي حميدة رجلا ثريّا، رجلا لا يؤثّر فيه جفاف البنوك من السّيولة ولا انقطاع الرّواتب... تراءى لي رجلا تتراصّ في خزائنه رزم الأوراق النقديّة وأكداس المصوغ وتتزاحم في إسطبل له رؤوس الأغنام... وتراءت لي نساء الحيّ وكلّ نساء المدينة وفتياتها يتحايلن كلّ بطريقتها على العمدة، يسكتن رغبته بما يسكت جوعهنّ، يتمرّغن فوقه وتحته ليَـفُزن منه بوجبة، بيوم حياة آخر... للحظة تراءى لي سي عبد الجوّاد قادما للتّو من بعثة تعليميّة في صحراء البترول، حيث المال زينة الحياة الدّنيا، تراءى لي رجلا لا يعبأ بجرايات الوظيفة العموميّة ولا يلتفت إليها... تجفّ البنوك ويشحّ الدّينار وتغلق الدّكاكين أبوابها ويجوع النّاس، ولا يبقى في كلّ المدينة غير سيف الموت يضرب ويضرب ويضرب ويردم الخلق في حفر بائسة، فتفرّ إليه إناث المدينة، يتخلّين عن عنفوانهنّ وعن حبّهنّ الأوّل وعن مبادئهنّ ويتنافسن للفوز به بين أحضانهنّ... مقابل يوم حياة آخر لهنّ ولأزواجهنّ ولمن يهمهنّ أمره.

- الألم نفسه في الموضع نفسه من الرّأس.

- عاد ؟
- بإصرار هذه المرّة.

كان الألم في حدود احتمالي ولكنّي هوّلت الأمر حتّى أسدّ على جميل وعليّ طريق التّفكير في واحدة أضاجعها ويدفع لها صاحبي كيسا أسود ثمّ ينظر في عينيها انتقاما.

كنت أسدّ الطّريق وأنفّر صاحبي منه وأغيّر وجهة الحديث حتى أحافظ على أكياسه وصناديقه وأمدّ أنفاسها بما يمدّ أنفاسي أنا الآخر.

وضع جميل كفّه على جبيني ثمّ رفعه وهو يزمّ شفتيه:

- حرارتك مرتفعة.

هذه خطوة أكيدة في اتّجاه الموت.

لو كان عاصم هنا، لو لم يصرّ أبي – رحمه الله – لماذا قلت " رحمه الله " ؟ أبي لا يزال حيّا ينعم بالدّنيا وبزوجة ابنه وبحفيدته- لا يهمّ، تجوز الرّحمة على الأحياء أيضا. قلت لو لم يصرّ أبي على اصطحاب سميحة وأمّها، لو كنّا معا، تحت سقف واحد... وارتفعت حرارتي... واشتدّ ألم رأسي... ووقف قبالتي الموت. لهزأت به أو قل لما أخافني كما يخيفني اللّحظة.

أدرك جميل أنّ كلامه روّعني... أسرع إلى الثّلاجّة يفتحها... كانت عامرة بقوارير الماء... تلمّسها بيده ثمّ جاء بأشدّها برودة وأخذ يمرّرها على جبيني ويسكّن بها موضع الألم في رأسي... بدأت أحسّ

أنّني أفضل... رجوت جميلا أن لا يشغل نفسه بي ووعدته أن أزوره بمجرّد ما أتعافى.

-10-

عندما خرج جميل، تعالى رنين الهاتف. ومع رنين الهاتف انتفض الألم في شقّ رأسي الأيمن.

- من؟
- ما به صوتك ؟ ماذا غيّره ؟
- لا شيء. كيف أنتم؟
- بخير. أبوك مات منذ قليل.
- .....
- هل ستأتي ؟
- لا. لا أظنّ.

عرفت رغم حرارتي المرتفعة ورغم ألم رأسي ورغم وقع الخبر، عرفت لماذا مات أبي، عرفت لماذا لم يمت قبل الآن.

قرّرت أن أتّجه نحو الباب... رنوت إليه... بدا لي بعيدا جدّا... تمنّيت لو يأتيني الباب فأفتحه وأتركه مفتوحا ثم أبعث به إلى مكانه... بركت... وحبوت. قطعت المسافة بين طاولة الهاتف والباب الخارجيّ

حبوا. فتحت الباب... ثبّته في وضع الفتح... ثمّ عدت حبوا إلى سريري. تناولت من علبة دواء زوجتي حبّتيْ Tranxène ومددْت يدي إلى جهاز الرّاديو القريب أشغّله... وبدا لي أنّي بدأت أنام. جاءني صوت السّيّدة " نعمة " تغنّي " الليلة عيد " وجاءني صوت مقرئ يرتّل " إذا جاء نصر الله " وجاءني صوت ممثّلة تلفزيّة معروفة بضخامة بدنها ورقّة صوتها تقوم بإشهار لنوع من قماش الأكفان قالت إنّه ناعم ولا يستلزم أن يكوى باستمرار... وجاءني صوت أبي يسأل عن صحّتي وعن "جميل" صديقي وعمّا لا أزال أخبّئ في بؤبؤ روحي من أيّام حياة أخرى... ثمّ كأنّي سمعت سميحة وأمّها تتحدّثان:

قالت أمّ سميحة لابُنتها:

- لو بقينا مع أبيك لما مات جدّك.

- كيف؟

- مجيئنا أجهز على كلّ ما كان جدّك يخبّئ لنفسه من أيّام حياة أخرى. كان خيره القليل الذي يحتفظ به سيمنحه أيّاما في العمر أخرى. جئنا نحن وأكلنا أيّام عمره.

- ترى، هل كان جدّي يدري أنّه سيموت فخيّر أن لا يرحل قبل أن يجتمع بنا ويرانا، ويملأ عينيه منّا وأذنيه بحديثنا وحكاياتنا ويترك في أرواحنا آخر أنفاسه وآخر كلامه وآخر ذكرياته؟

- الله يرحمه. غاب عنّا طويلا ثمّ جاء بنفسه يدعونا إلى جنازته.

- أمّي، كيف ذهب جدّي إلى مثواه الأخير؟
- ما معنى كيف ذهب؟
- هل... هل تجرّأ أحد عليه؟
- ما معنى تجرّأ؟
- هل هبر أحد من لحمه شيئا؟
- لا. عمّاتك أقسمن أن لا يقربنّه ولا يمسّنّه بشر ووضعن على قبره حراسة لن تنتهي قبل ثلاثة أيّام.
- هل سنعود؟
- لا. ليس الآن على الأقلّ.
- أشعر بالخوف على أبي.
- لو بقينا مع أبيك لمات أحدنا.

هذه المرّة، لم تسأل سميحة أمّها: "كيف؟"، وساد بينهما الصّمت... أيقظني صمتهما ونقر الألم في شقّ رأسي الأيمن وشعور بجفاف حلقي وعطش شديد.

أنامتك الحبّة الأولى عشر ساعات. أراحتك من نفسك عشر ساعات. قلت ستسافر بك الحبّتان معا عشرين ساعة لا تحتاج خلالها أكلا ولا شربا ولا يشتغل فيها ذهنك ولا يؤلمك فيها رأسك... وقد تنهض إثرها سليما معافى من ألم الرأس وغصّة موت أبيك ويتم زوجتك وابنتك من بعده... فتحت عينيك فاصطدمتا بجميل يقعي عند رأسك وأمامه قهوة سوداء يحوم حولها ذباب كبير في حجم

الصّراصير ومنفضة فاضت على جوانبها أعقاب السّجائر. الذين يشربون الشّاي والقهوة ويتعاطون التّدخين أصبحوا قليلين جدّا. إذا رأيت أحدا يضع بين شفتيه سيجارة أو بين أنامله كوب قهوة أو كأس شاي فتأكّد أنّه لم يجع بعد، إذا سمعت عن رجل مازال بوسعه أن يضاجع امرأة أو لديه مجرّد نيّة تقبيلها والنّظر إليها بشهوة فتأكّد أنّه لم يجع بعد.

إذا سمعت عن أحد مازال بإمكانه أن يفكّر تفكيرا فيه نسبة من المعقول والمنطق فاعرف أنّه مازال بخير وأنّ بطنه لم يقرصه بعد ورحم الله ذلك المثل الفرنسيّ القائل: " Ventre creux, tête vide."... إذا قابلت شخصا مّا وعرفته لأوّل وهلة، فتأكّد أنّه لم يجع، لو كان جاع لكان تبدّل، لكان ذهب لحم وجهه وضياء عينيه ولكان جسمه "شرب" ولكانت خريطة بدنه تبدّلت تماما... جميل لم يتبدّل، مازال صدره عريضا، مازال كرشه منتفخا ومازالت وجنتاه مكتنزتين.

نعيمة بنت العمدة، تبدّلت. امتلأ وجهها وتورّد وشفّت جلدته، واتّسع حوضها واكتنز... أخت زوجها أصبحت كنسخة منها... زوجتي وسميحة، لم ألاحظ فيهما قبل مجيء أبي تغيّرا يذكر ثمّ جاء أبي وقال إنّهما ليستا هما... العمدة ؟ المعلّم ؟ لا أدري لماذا ركبتني رغبة هوجاء في أن أراهما... في أن أرى إلى أيّ حدّ غيّرت فيهما أيّام الجوع وإلى أيّ مدى خفّفت عنهما نضالات نعيمة وصبيّتها مع جميل وقع الكارثة... أبي... عندما جاء يزورنا، كان أبي. كان كما

عهدته لم ألحظ عليه تغيّرا في وجهه ولا في بقيّة بدنه... هل كان أبي يتغيّر من الدّاخل... هل استطاع أن يحافظ على مظهره فيما هو من الدّاخل يتآكل ويهوي ويقترب من الموت شبرا في كلّ ساعة...؟

قلت لجميل:

- أريد أن أترك البيت... أن أتجوّل في الحيّ والأحياء القريبة وأن أشاهد الشوّارع الخالية وأن أتأكّد إن كنت أستطيع أن أتعرّف على النّاس وإن كان بإمكان النّاس أن يتعرّفوا عليّ... أريد أن أرى نعيمة... لا أدري لماذا ولكنّي أريد أن أراها... أراها فقط... أريد أن أسلّم على أبيها... أن أسأل زوجها عن أحواله.

- والألم في رأسك؟

- لا أحسّه الآن.

- كل شيئا ثمّ نذهب.

- تأكل معي ؟

- آكل معك.

جذب جميل كيسا أسود. أخرج منه علبة حليب مركّز وفتح في سقفها ثقبين متقابلين ثمّ بدأ ينفخ في أحدهما... وانبعث الحليب من الآخر خثرا أبيض شهيّا . ملأ صاحبي نصف كوب لكلّ منّا...صببنا الكويين في أمعاءنا...ونهضنا.رغبتي التي لا مبرّر لها في أن أرى العمدة وابنته وصهره بعد أسابيع من النّكبة أنستني مرضي وهزالي وبعثتني من سريري حيّا أسعى...أتوكّأ على جميل وأسعى...أوزّع

عينيّ الضّبابيّتين هنا وهناك وأسعى... اعترضتنا جارتي ريم تحثّ الخطى نحو بيتها وهي تحمل صندوقا كرتونيّا من الحجم الصّغير...حتّى الصّناديق تقلّص حجمها...سلّمت على جميل وضحكت له وسلّمت عليّ كأنّها تراني لأوّل مرّة...

قلت لجميل:

- لا يبدو على ريم أنّها تأثّرت لفقدان زوجها الشّرطيّ.

- ولماذا تتأثّر ؟ يجب أن تحمد الله على أنّه لم يترك لها غير ولد واحد. تستطيع ريم بصندوق كهذا الذي تحت ذراعها أن تعيش مع ابنها نصف شهر آخر في أمان...

- وتستطيع ريم بهذا المرمر المصقول وهاتين العينين السّاحرتين أن تعود إلى بيتها بصندوق في كلّ يوم.

- لا. لا تنس أنّ المدينة ملآنة مرمرا مصقولا وعيونا ساحرة. العيون السّاحرة أكثر من العطّارين الكرماء.

- هل كانت سترضى أن تقايض مرمرها المصقول وعينيها الجميلتين بصناديق الكرتون لو بقي زوجها الشّرطيّ حيّا؟

- هي شرعت في المقايضة أثناء حياته.

- لماذا مات إذن ؟ لماذا مات إذا كانت زوجته تعود إليه بين اليوم واليوم بما يسدّ الرّمق ويسكت الجوع؟

- يوم عادت بالصّندوق الأوّل، لم يقل زوجها شيئا... ولكنّه نذر كلّ وقته لمراقبتها إلى أن رآها ذات قيلولة تدخل دكّان أحد

الزّملاء ورأى الباب يغلق وراءها ثمّ ظلّ ينتظر إلى أن فتح الباب وخرجت ريم تمسك بيدها اليمنى صندوقا كرتونيّا جديدا وتسوّي بيدها اليسرى خصلات شعرها المبعثرة.

- ضربها؟ فضحها؟ طلّقها ؟ ماذا فعل؟

- لا . قطع الطّريق إلى البيت وهو يحتضر. عندما وصل ووصلت هي بعد دقائق، لامها قليلا... وأوصاها بالولد كثيرا... وسقط ميّتا.

-11-

أسرعت إلينا عجوز الحيّ " تفّاحة" بمجرّد أن رأتنا... سلّمت علينا ونظرت في عينيّ طويلا ثمّ سألتني عن سميحة وعن أمّ سميحة وعن عاصم... تمنّيت لو كنت أستطيع أن أساعدها بشيء : بقرص شوكولاطة، برطل سميد، بقطعة جبن، بكلام جميل، بكلام مّا... سحبت من يدها الباردة يدي ولكزت بمرفقي سائقي ومضينا. لا أدري كيف ظلّت عجوز الثّمانين هذه حيّة إلى اليوم... مات خطيب سميحة الذي كان شابّا يشتعل حياة... مات أبي الذي كان يعيش على الهواء الصّالح للتّنفّس والماء الصّالح للشّراب والحليب غير المعلّب وبيض الدّجاج الطّبيعيّ... مات زملاء لي وأصدقاء وزميلات وصديقات وجيران وجارات وأقارب هنا وفي بقاع أخرى... مات أطفال أصحّاء وشبّان غلاظ و كهول يتّقدون حياة... وظلّت حيّة " تفّاحة" عجوز الثّمانين التي كنّا على يقين جميعا بأنها ستكون أوّل من يغادر.

أعرف " تفّاحة" منذ حوالي أربعين عاما. يروي الكبار أنّها تزوّجت أربع مرّات. كان عمرها في زواجها الأوّل عشرين عاما. ويقال إنّها قتلت عريسها أيّام العرس الأولى. كانت جميلة، كانت فاتنة

ومثيرة... ولم يكن عريسها يبرحها ولا يملّ منها. قطع كلّ صلاته بالعالم الخارجيّ وأجبرها على أن لا تغادر البيت وألاّ تستقبل فيه أحدا إلى حين هدوء فترة فورته الأولى... استنزفته... وقيل إنّه لفظ أنفاسه الأخيرة ذات فجر وهو يضاجعها... ثمّ أصبح الرّجال يخافون " تفّاحة" وظلّت أرملة إلى الخامسة والثّلاثين... جاء رجل آخر وتزوّجها. قال أنا أكفيكم شرّها و أثْأر منها لابن عمّي الشّهيد. عاش معها شهرا ويقال شهرين ثمّ طلّقها عن طيب خاطر، طلّقها برمي المنديل. ضحك منه أصحابه كثيرا ولكنّه لم يأبه لسخريّتهم وقال لهم: يكفيني فخرا أنّني خرجت منها حيّا...أتكلّم وأتنفّس وأمشي وأميّز بين الأشياء... "تفّاحة" أمامكم، تزوّجوها إن شئتم واخرجوا منها أحياء إن استطعتم...

ثمّ جاء من إحدى الأرياف البعيدة رجل يسعى... قال لها:

- أنا رجل لم تطقه النّساء وأنت امرأة لم يطقك الرّجال. عندما سمعت عنك قلت هذه هبة الله إليّ... جئتك يا " تفّاحة" ببدن تربّى منذ نشأته على السّمن والعسل والشّعير والقمح ولحوم الغزلان ولحوم الذّئاب ولحوم الطّيور... جئتك ببدن لم تجر في عروقه حبّة دواء واحدة ولم يرقد على سرير طبيب أو متطبّب... جئتك ببدن فيه فورة عنيفة مستديمة لم تهدّئها نساء الحلال ولا حتّى نساء الحرام.

تمّت إجراءات الخطبة وعقد القران بين العصر والمغرب... وبين المغرب والعشاء جاءته وقالت: هيت لك... بعد أسبوع واحد جاءت سيّارة الإسعاف وحملته إلى المستشفى. قال له الطّبيب: سنستبقيك عندنا أسبوعا. سنرمّم لك لحمك وعظامك وسنعيد إلى دمك الحياة وإلى رئتيك الهواء. رمّمه الطّبيب وأنعشه و غذّاه وسمح له بالخروج. عندما رأته قادما زغردت، تركته يرتاح ساعة ثم تمدّدت أمامه وقالت له في غنج: هيت لك. عندما رآه الطّبيب للمرّة الثّانية على نفس السّرير، قال له: هذه المرّة ستظلّ هنا... وإن أنت رغبت في ترك المستشفى، سيكون فراق بيننا وبينك، لا تعد إلينا حيّا ولا ميّتا... ويوم أحسّ أنّه تماثل للشّفاء خرج في غفلة من الطّبيب والممرّضين واتّجه نحو محطّة سيّارات الأجرة ليهرب إلى ريفه البعيد.

بعد عشر سنوات أخرى، ترمّل رجل منّا فقال له جماعة من أصحابه:

- " تفّاحة" هدأت ولم تعد تخيف الرّجال. تزوّجها تذهب عنك وعنها سآمة اللّيل والنّهار وبرودة الفراش ورتابة عمرك الباقي.

ثم ذهبوا يستشيرونها فقالت لهم دون حتّى أن تفكّر:

- أنا لن أخسر شيئا. هاتوه نجرّب.

ولم يدم زواج الأرمل والمطلّقة أكثر من أسبوعين ثم جاء أبناؤه وانتزعوه منها وأجبروه على تطليقها.

وظلّت " تفّاحة" بعد زيجاتها الأربع تعيش على الذكّريات وعلى أمل أن يقيّد الله لها رجلا لا كالرّجال، رجلا يخمد لهيبها، يأكلها من الدّاخل، يبكم الذّئاب العاوية فيها... ظلّت تعيش على أمل ذاك الرجل إلى أن تقدّم بها العمر وذهب بجمالها الزّمن... ثم جاءت أزمة الجوع الكبرى.

- سأذهب إليها وأسألها.
- من ؟
- من؟
- سمعتك تقول سأذهب إليها وأسألها.

أصبحت أخلط بين السرّ والجهر ! خطوة أكيدة أخرى في اتّجاه الموت ! ارتفاع الحرارة والألم في شقّ رأسي الأيمن وضباب العينين وفقدان التّوازن والنّوم بالحبوب والخلط بين الحقيقة والخيال... ثمّ الهذيان.

- كنت أفكّر في سرّ بقاء عمّتي " تفّاحة" على قيد الحياة. لم أسأل عن ذلك قبل الجوع... ولكنّي فوجئت بها اليوم حيّة تسعى كأفعى... تمشي وتتكلّم وتتعجّب وتستفهم.
- رغم أنّها لم تقف بباب مغازتي يوما وأنّني لم أفكر مجرّد التّفكير في مساعدتها.

فاجأني الضّحك.

- ولماذا ستساعدها؟

- لا. لم أقصد ذلك. أقصد أنّ ما ستأخذه لن يمنع الموت عنها وأنّه سيكون على حساب أيّام إضافية لواحد آخر.

مررنا بمغازة جميل. في الأعلى لافتة كبيرة مكتوب عليـــها " مغازة جميل لبيع الموادّ الغذائيّة والمنزليّة "، على يمين الباب صورة مكبّرة لزجاجة كوكا باردة من الحجم الكبير وعلى يساره صورة امرأة تلبس شورطا يصل إلى أعلى الفخذين وصدريّة لا تكاد تغطّي من صدرها شيئا تـتـثـنّـى بين أحضان رجل سمين وهي تقضم شوكولاطة...

انتعشت.

انتشيت.

غمرني فرح صبيانيّ لا حدود له.

لم يكن ذلك لأنّني رأيت كوكا باردة ولا لأنّني شاهدت فخذين قمحيّتين سمينين عاريين ينتفضان في الفضاء. لا. انتشيت لأنّني أحسست أنّه مازال ثمّة ما يستثيرني ويشدّني ويحرّك شهواتي وغرائزي... غرائزي تتحرك: أنا حيّ ! أنا أشتهي: أنا بخير !!!

انتشيت لأنّني أحسست أنّه في كدس الرّماد الذي في رأسي مازال ثمّة قبس من لهيب!

شكرا كأسَ الحليب المركّز ! شكرا " تفاحة" ! مرآك أيقظ فيّ حبّ الحياة وجعلني أنتبه إلى الكوكا الباردة وإلى امرأة الشّوكولاطة.

لا أدري لماذا تمنّيت وقتها على قبس اللّهيب أن يتسلّل وأنا في غطيط النّوم إلى موقع الألم في شقّ رأسي الأيمن وأن يكويه كيّا لا ينتفض بعده أبدا فيريحني من نوباته التي تأتي أحيانا حادّة لا تطاق.

لم يكن أمام مغازة جميل أثر لحيّ، قبل الجوع، كانت حركة البيع لا تهدأ إلاّ قبل هُمود النّاس بقليل، تضطرّك الزّحمة أحيانا إلى أن تنتظر دورك واقفا أكثر من نصف ساعة... ثم تعدل عن الوقوف وعن انتظار الدّور وعن قضاء حاجتك وتجذب كرسيّك وتجلس في انتظار أن يخلو الحانوت من حرفائه مع أذان المغرب...يا لأذان المغرب ! ! لم تسمع منذ اليوم الرّابع للجوع أذانا يرفع... أغلقت المساجد بعدما عزف عنها النّاس وانقطعوا عن العبادة. هل كان النّاس يصلّون لأنّهم يأكلون ؟ هل كانوا يؤمّون المساجد لأنّهم كانوا يقبضون جراياتهم بانتظام؟ هل كانوا يقايضون العبادة بالجراية ؟؟

انتبه جميل إلى أطراف وريقات في شكل ظروف مدسوسة تحت الباب... جذبها وبدأ يقرأ:

- انتظرتك ساعتين فلم تأت. سأعود "

(ق)

- أين أنت ؟ نلتقي اللّيلة بعد العشاء.

(حا)

- لن آتيك. تعال إليّ أنت. في انتظارك.

(ب)

- أعتذر. لن تراني قبل ثلاثة أيّام أخرى.

(ج)

- أخي عاد البارحة من ليبيا. سأزورك اللّيلة ومعي جلباب لك أبيض وقنّينة عطر وشفرات حلاقة وعلب تبغ وكيس من الشّاي. انتظرني.

(مي)

- كنت رائعا أوّل أمس. سأكون رائعة اللّيلة.

(ل)

نظرت إلى امرأة الشّوكولاطة وإلى زجاجة الكوكا... ولم أعلّق بشيء.

-12-

كنّا قد وصلنا إلى ساحة دار العمدة. اصطدمنا بحشد كبير من الخلق، ما حواليْ عشرين شخصا يُقعون ككلاب موبوءة يحكّون رؤوسهم ويفركون أعينهم ويناوئون بأطراف أكمامهم ذبابا أسود كبيرا في حجم الصّراصير يـتـنزّه بين لعاب أفواههم وعرق أرجلهم. انحزنا إلى ركن ظليل و أقعينا... بحركة من يده، سأل جميل واحدا منهم.

- ... ؟

فأشار الرّجل بسبّابته إلى أعلى ثم أتبع سبّابته رقبته ورفع رأسه وحدّق في السّماء.

- من؟ سألناه معا.

قرن الرّجل سبّابته بوسطاه ثم ضمّهما وأشار بهما إلى الفضاء العالي... فهمنا أنّ الله نقل إلى جواره عبدين من عباده الجائعين. ومن الدّاخل أطلّ نعشان تحملهما أكتاف هزيلة لا عهد لي ولا لجميل بوجوه أصحابها... لم نسمع قبل خروج النّعشين ولا معه

ولا بعده نحيبا ولا بكاء ولا تصويتا ولا عويلا ولا شهيقا ولا زفيرا... أردت أن أسأل كيف ماتا أو كيف ماتا معا. هل أصبحت نعيمة خلال أيّام الجوع الأخيرة تؤثر نفسها وابنيها على أبيها وزوجها؟ هل قتلهما شحّ نعيمة أم قتلهما ذهاب نعيمة في علاقتها بجميل إلى حدود المعاشرة المفضوحة ؟ هل جاء المعلّمَ أهلُه وقتلوه بعدما وصل إلى أسماعهم أنّه يأكل بثدييها ؟ هل قتل العمدةَ نفر من أهله بلغهم سكوته عن سعي ابنته إلى عطّار رفضه زوجا فاتّخذته عشيقا ؟ كيف ماتا معا ؟

وصلنا إلى المقبرة. كم كبرت هذه المقبرة واتّسعت أطرافها وضاقت مسالكها... وضعنا الصّهرين في التّراب... لم نقرأ عليهما آية واحدة ! لم يُــتْلَ لهما ولو دعاء وحيد... لم يقل أحد: هيّا نقرأ على روحيهما الفاتحة. في صمت دفنّاهما وفي صمت تفرّقنا.

قال جميل يســتــشــيرني:

- نذهب إلى نعيمة؟

- نذهب. نعزّيها ونستفسر منها.

لم تكن نعيمة حزينة... كانت مرتبكة. كانت خائفة. ولكنّها لم تكن حزينة !

لم نسألها عن شيء. مددنا إليها أيدينا... وسلّمنا وعزّينا وتمنّينا الصّبر والنّسيان ثم هممنا بالخروج ولكنّها أمسكت بنا وألحّت على بقائنا ثم بدأت تحكي:

- احتدّ بينهما فجأة نقاش لا أدري كيف انطلقت شرارته... عندما علت أصواتهما أسرعت إليهما... كانا يهمّان ببعضهما بعضا... دفع عبد الجوّاد العمدة فارتطم رأسه بالحائط... ترنّح... أمسك الهواء بأظافره... ثم هوى.

وانخرطت في ما يشبه البكاء.

لم نكن في حاجة إلى أن نسمع بقيّة رواية نعيمة... لم يكن صعبا أن نفهم أنّها ردّت الفعل سريعا وألحقت بطعنة موسى أو بتعنيف شديد أو بضربة في الرّأس زوجها بأبيها ثم خرجت للنّاس وقالت: اختلفا وتخاصما وقتل كلاهما الآخر.

قلت له ونحن في طريق العودة:

- أكياسك السّوداء يا صاحبي عبّأت الصّدور وأقامت القيامة وأصبحت تقتل خلق الله.

- كانا سيموتان على أيّة حال. لو لم يقتلهما العنف لقتلهما الجوع.

- أتمنّى أن لا يكون الطّفلان قد حضرا الواقعة؟

- أنت تفكّر كأنّك لا تعيش أيّام الجوع. تأكّد أنّ الطّفلين وأمّهما لا يفكّران إلا ببطونهم... لم يعد مجال للتّفكير بغير البطن. سيقولون نقصت وجبتان. سيقولون: هذه فرصة لأيّام إضافية أخرى لنا.

عاودني برود أمّ سميحة وهي تنقل إليّ خبر موت أبي رحمه الله ولا أدري لماذا خفت أن تكون زوجتي وابنتي قد فرحتا لموته وقالت إحداهما للأخرى: هذه فرصة أيّام إضافية أخرى لنا.

- ما بك تتّجه يسارا ؟
- نسيت أن أخبرك. سنتناول العشاء معا .
- أنت تحرجني... ثم ماذا ستفعل في قافك وحائك وبائك والأخريات؟
- أشعر أنّني على غير ما يرام.
- لموت الرّجلين؟
- لم أكن أتوقّع أن يموتا الآن.
- ستتفرّغ لك نعيمة وصبيّتها.
- قد لا أفكّر فيهما بعد اليوم.

لم يستطع جميل أن ينسى أنّ العمدة وقف في طريقه يوما ورفضه لأنّه بلا وظيفة قارّة. مازالت لديه رغبة في مزيد الانتقام... عندما أحسّ أنّ معاشرته لنعيمة لن تكون انتقاما، قرّر أن يتخلّى عنها... قد يظلّ يساعدها... قد يظلّ يعطف عليها... ولكنّه لن يجد لذّة في أن يراها متربّعة على الكونتوار عارية أو متمدّدة تحته أو فوقه على كيس سميد أو قادمة إليه تجرّ أخت زوجها وتوصيه بها رفقا.

قال ستتعشّى. منذ متى لم أسمع هذه الكلمة ؟ منذ متى لم أفكّر مجرّد التّفكير في أن آكل قبل النّوم... لم يكن عشاء ما دعاني إليه جميل ! كانت وليمة ! كسرة قمح وصحن زيت وحبّات زيتون وتين مجفّف وشاي أحمر وكوكا باردة ! الحمد لله الذي أبقاك حيّا إلى أن تشرب الكوكا الباردة ! الحمد لله الذي أبقاك حيّا إلى أن تتربّع أمام مائدة عليها أصناف عديدة من الأكل وتصيب منها جميعا... تأكل وتأكل إلى أن تتجشّأ، تراك تبقى حيّا إلى أن تلمس فخذين سمينين حارّين كفخذي امرأة الشّوكولاطة ؟ بنهم أكلت. تعمّد جميل أن يغرق الغرفة في شبه ظلام حتى لا تتحرّج أمامه من نهمك. عاودتك وأنت تمضغ كسرة القمح وحبّات التّين لذّة كنت تحسب أنّك لن تستعيدها أبدا، لذّة كنت نسيتها تماما ! كم تمنّيت أن تطيل المضغ.. ! لم تدر لماذا وقتها وجدت نفسك تحسد العواشب المجترّة على نعمة الاجترار ! لو كان يمكن أن تجترّ.. لو كان يمكن أن تستعيد لذّة المضغ كلّما وخزك الجوع... تمنّيت أن تمتّع أضراسك بلذّة الرّحي أطول وقت ممكن ولكنّه كان عليك أن تملأ بطنك ضمانا لأيّام إضافيّة أخرى قد تجمعك من جديد بسميحة وأمّها وبعاصم وكاترينا...

رفعت من أمامنا المائدة وأنيرت الغرفة وجاءت أمّ جميل تسلّم عليك وتسألك:

- كيف حال سميحة وأمّ سميحة ؟

- لم أرهما منذ مدّة ولكنّي أعتقد أنّهما بخير. جاء أبي واصطحبهما إلى القرية ليقتلاه.

- قتلاه ؟

- من؟

- قلت " اصطحباه إلى القرية ليقتلاه" !

- لا . أصرّ على أن نذهب معا ففضّلت أنا البقاء هنا وذهبتا معه لتؤنساه.

- وكيف هو؟

ردّ عليها جميل:

- هو، الله يرحمه.

ملأت لك أمّ جميل صندوقا كرتونيّا من الحجم الصّغير وأوصلك صاحبك إلى دارك. لم أتوكّأ عليه... وصلت بمجهودي الخــاصّ ! لا . أعتذر أيّها القارئ . هذه المرّة أنا مخطئ. هو خطأ حدث سهوا لا محالة ولكنّه خطأ في حقّك وفي حقّ جميل. قلت إنّني وصلت إلى داري بمجهودي الخاصّ دون أن أتوكّأ على صاحبي والصّواب أنّي توكّأت عليه أو أنّي عدت إلى البيت بمجهوده الخاصّ !!! الصّواب أنّني استعنت بكتفه وذراعه ونحن خارجان من داري وتوكّأت على كسرته و تينه و زيته و شايه الأحمر وفرحي بصندوق أمّه ونحن عائدان إليها.

قلت له:

- أصبحت أفكّر كثيرا بزوجتي وبسميحة.
- نسافر غدا إليهما ونعود بهما.
- اتّفقنا .

-13-

نمت.

نمت كما ينام أيّ بشر سويّ. نمت كما ينام رجل تعشّى حتّى تجشّأ وعاد إلى بيته يحمل تحت إبطه أيّاما إضافيّة أخرى ستمدّ عمره حينا من الدّهر ونوى أن يسافر في اليوم الموالي للعودة بزوجته وابنته.

قالت لي:

- كنت ستأكلني بعينيك الجميلتين عندما التقينا أمام مغازة صاحبك !

- غصبا عنّي. اعذريني. كنتِ فوق طاقة الاحتمال.

- ولماذا ابتعدت ؟ لماذا تركتني وذهبت؟

- لم تكوني بمفردك. كان معك ذلك الرّجل السّمين.

-الآن أنا وحدي. أنا لك. ذلك الرّجل السّمين ليس معي.

اقتربت منّي. بدأت أرتجف... أخرجت علبة شوكولاطة... عرّتها... وضعت طرف مستطيل الشّوكولاطة بين أسنانها وأطبقت عليه بشفتيها وقرّبت منّي طرفه الآخر... وضعته بين أسناني وأطبقت

عليه بشفتيّ... فالتقت شفتانا. أحطت خصرها بذراعي وضممتها إليّ... شهقت... شهقت... ذابت في فمـيْـنا الشّوكولاطة وذاب فمَانا.

همست:

-سآتيك كلّ ليلة.

غمرني العرق وجفّ في حلقي الرّيق وبدأت أرتعد.

- هذا وعد ؟

ردّت:

- بشرفي.

وجذبتني إليها. ولكنّي انجذبت إلى الخلف... التفتّ، فوجدت الرّجل السّمين يقف أمامي... فرّق بيننا بذراعيه ثمّ دفعني بعنف... أفقت على طعم الشّوكولاطة في فمي وعلى منظر ذباب كبير في حجم الصّراصير يلعق ما سال منها على شفتيّ ولحيتي ورقبتي...

لجميل صديق أطلق عليه النّاس اسم " المقصّ" تعوّد قبل أيّام الجوع أن يهرّب من البلدان المجاورة البنزين ويبيعه لأصحاب السّيّارات... قصدناه وطرقنا بابه وطلبنا منه أن يملأ لنا خزّان السّيّارة... لم يسأل إن كان عندنا ثمن البنزين ولم يتردّد في إخراج برميلين منه وصبّهما... أخرجت من جيبي ما قدّرت أنّه يرضي صاحب جميل... تلك كانت المرّة الأولى التي أصرف فيها ممّا أعطته لي كاترينا... وانطلقنا.

لا أدري لماذا سمّى النّاس "جبران الوافي" "المقصّ" ولم أفكّر أن أسأل يوما عن ذلك ولكنّني نادرا ما أسمع النّاس ينادونه أو يتحدّثون عنه باسمه الحقيقي. حصل جبران على شهادة تقني سامي في تكنولوجيا الاتّصالات اشتغل بها نادلا في مقهى " المستقبل" الذي يتربّع أمام مباني الحيّ الإدرايّ طيلة سنة كاملة... ثمّ لمّا أدركت أمّه أنّها ستموت قبل أن تطمئنّ عليه، باعت إرثها من النّخل. وقدّمت إليه ثمنه ورجته أن يتدبّر أمره. ظلّ "جبران" يومين متتالين يفكّر في مشروع يطمئن أمّه عليه ويضمن له حدّا أدنى من المعيشة ثم اختار أن يشتري سيّارة من نوع ISUZU ويشتري معها رخصة السّياقة وعسس الطّريق ثمّ بدأ يورّد من البلاد المجاورة براميل بنزين رفيع وبدأ يتهافت عليه أصحاب السيّارات يملئون بطون محرّكاتها بوقود أرخص ثمنا وأرقى نوعا. جنّ أصحاب محطّات الوقود وذهبوا يشتكونه إلى الشّرطة فلم يجد أعوان الشّرطة دليلا عليه رغم أنّهم كانوا يملئون سيّاراتهم من بنزينه المهرّب.

عندما اطمأنّت أمّه إلى أنّ نخلها الذي ورثته عن أبيها لم يذهب هباء، قالت له: الآن تزوّج. أنا امرأة قريبة من الموت وأنت رجل لا أهل لك. أريد أن أرى أولادك وبناتك يجرون أمامي ويلعبون حتّى أطمئن عليك أباك في قبره...

ورضخ جبران لرغبة أمّه في أن يتخّذ لنفسه امرأة ولكنّه لم يلبّ رغبتها في رؤية أولاده يلعبون ويركضون... انكبّ مدّة على

قراءة إعلانات الزّواج التي تنشرها الجرائد بحثا عن واحدة طلّقها زوجها بسبب العقم... وعندما عثر على مشروعه، ذهب إليه.

قالت له:

- أنا لا أنجب. أنا امرأة أكّدت فحوص الأطبّاء وتحاليلهم أنّني لن أكون أمّا إلاّ بمعجزة.

- وأنا أبحث عن واحدة لا تنجب. لا أريد أن أورث غيري سيّارة مهترئة وبراميل بنزين مهرّبة... يجب أن لا تعلم أمّي أنّك لا تنجبين حتّى لا تقوم القيامة وتقول هذه مؤامرة... سأغضبها، سأحرمها... ولكنّي لن أجني على أحد.

قالت له:

- أعيش معك إلى أن تتحسّن حالك وتثبت قدمك ويوم تتأكّد من أنّك لن تجني بالإنجاب على أحد، ابحث لك عن امرأة أخرى.

لم يعجبه اقتراحها ولكنّه ليضع حدّا لنقاشهما قال لها:

- وقتها، يعمل ربّي.

كان سفرنا فرصة لأتفرّج على المدينة وأطلّ على الحيّ الإداري وأمرّ أمام مقرّات بعض البنوك و أمرّ أمام مقرّ عملي. قرأت لافتة "قصر البلديّة" فتذكّرت أنّني كنت قبل النّكبة و لوقت طويل كاتبا عامّا بهذه الإدارة الضّخمة، أصول و أجول و تتوقّـــــف على ختمي و إمضائي شرعيّة وصلاحيّة أوراق و وثائق بعدد شعر الرّأس. قسط

ضخم من ميزانيّة بلديتنا صبّ في حساباتنا الجارية قبل الأزمة بيوم واحد... ماذا كنت سأفعل لو أخبرني صديق صادق أو هاتف مجهول أو حلم مقدّس أو مسؤول كبير أنّ البنوك ستخلو من أموالها و أنّنا سنموت جوعا ؟؟؟

كانت فرصة شاهدت فيها المدينة التي عزفت عنها منذ سكت عن النّاس الغضب وكفّوا عن التّظاهر وانهمكوا في أكل بعضهم بعضا وفي دفن بقاياهم. كانت الشّوارع التي مررنا بها شبه خالية ولا شيء في كلّ المدينة يوحي بأنّ ثمّة حياة مّا أو حتّى بأنّ المدينة ستشهد بعثا قريبا.

سألني صاحبي:

- كم يستغرق منّا الطّريق ؟
- أربع ساعات.
- ذهابا وإيّابا؟
- لا. ذهابا فقط.
- لك أن تنام إذا شئت.
- لا. البارحة نمت جيّدا.

بعد سبعين كيلومترا شاهدنا ثلاث نساء منكبّات على حفرة في جانب الطّريق الأيمن. قال جميل إنّها معدن للطّين... كنّ ينبشن الكتلة الرّماديّة بأطراف أصابعهنّ ويضعن في قفاف أمامهنّ

ما يتساقط من حجر طينيّ... انتبهن إلى سيّارتنا تتوقّف ولكنّهنّ لم يعبأن بنا... واصلن نبشهنّ ورحيهنّ الطّين بين أضراسهنّ وضحكهنّ.

- هل ذقت مرّة طعم الطّين ؟ سألني جميل.

- ذقته. ذقته وأنا صغير أقضّي غالب وقتي بين ركب أمّي وخالاتي اللاّتي كنّ يسكتن به شهوات الوحم وتقلّبات أشهر الحمل الأولى. أذكر أنّني عندما أدخلت إصبعي وأخرجت قطعة الطّين من بين أضراسي ضحكن منّي... لا أدري لماذا كنّ يؤكّدن على أنّه لذيذ وطيّب.

عندما قطعنا نصف المسافة كنّا قد دخلنا مدينة " أمّ يوسف". هذه مدينة مشهورة بجمال إناثها يأتيها كثيرون ليتجوّلوا في شوارعها ومغازاتها وأسواقها ومستشفياتها ويملؤوا أعينهم من حسن النّساء وتناسق أبدانهنّ ويدخلها كثيرون فرادى ولكنّهم لا يخرجون منها إلاّ بزواج أو بمشروع زواج... إناث " أمّ يوسف" جميلات، مثيرات، ويقال إنّ فيهنّ طعما ليس كطعم أيّ نساء أخريات... عندما قرأت " أمّ يوسف ترحّب بكم "، قلت يجب أن أتأمّل ما فعل في نسائها الجوع... يجب أن أرى إن كنّ مازلن مثيرات ومتناسقات... كانت الشّوارع خالية والمحلاّت مغلقة... مررنا بصيدليّة مفتوحة، طلبت من "جميل " أن يتوقّف ريثما أشتري مهدّئا لألم الرّأس، كانت رفوف الصيدليّة شبه خالية وكان يقف وراء المضرب رجل وامرأتان، في وجوه الرّجل والمرأتين رأيت الجوع، رأيته في عيونهم الغائرة، في

نتوء عظام وجوههم... في انكسار نظراتهم وذبولها. أدركت بمجرّد ما حدّقت في الوجوه الثّلاثة أنّ الجوع لم يفرّق بين الجميل والقبيح... شرب لحم هذا ولحم ذاك... أخذ بريق هذا وأخذ بريق ذاك...

نظرت في عينيّ إحداهما:

- لست من " أمّ يوسف"؟

- لا. أنا من...

- كيف حالكم هناك؟

- بخير. مات أكثرنا. لم يبق في المدينة حيّا إلاّ الأثرياء والذين لهم من عائلاتهم أفراد في الخارج وبعض المعطوف عليهم.

أخذت علبة الدّواء ودفعت ثمنها الذي تضاعف خمس مرّات وانطلقنا... خرجنا من " أمّ يوسف " وبدأنا نقترب من ريفي الجميل الذي لم أزره منذ سنوات عديدة... على طرفي الشّارع بدأت تمتدّ مزارع وحقول وأمام كلّ مزرعة وحقل كان يحتشد عشرات الأشخاص. توقّفنا وسألنا أحدهم قال:

- هؤلاء النّاس أخرجهم الجوع من ديارهم وفيهم من جاء به الجوع من مدن بعيدة... يتزاحمون من الصّباح إلى الصّباح للفوز بساعة عمل مقابل ما يملأ بطونهم... و منهم من لا يفوز بفرصة عمل فيبقى هنا يأكل الحشيش وأوراق الشّجر ويتحيّن فرص سرقة الخضر والفواكه.

بدأت تداعب أنفي روائح زوجتي وابنتي... عندما تذكّرتهما تذكّرت عاصما... ترى كيف هو الآن ؟ ماذا يأكل ؟ كيف ينام ؟ هل يفكّر فينا وفي مدن الجوع من بعده ؟ ولماذا انقطعت هواتفه ؟ وكاترينا، هل وجدت له شغلا ؟ هل تنام معه ؟ هل تغار عليه؟

الأمكنة، يا لسحر الأمكنة ! لكلّ مكان روائحه ! لريفي هذا رائحته التي يختلف طعمها عن أيّ رائحة أخرى. هي مختلفة هذه المرّة لأنّني لن أجد في انتظاري أبي ولكنّها مختلفة أيضا لأنّ فيها سميحة وأمّها. لا أدري لماذا اعتراني فجأة خوف وانتفض في رأسي ألمي وشعرت بحنجرتي تجفّ وبالهواء يموت من حولي. لا أدري لماذا فجأة خفت أن لا أجد في انتظاري زوجتي وسميحة... خفت أن أجدهما كدسين من التّراب في رأسيهما عودا قصب وحولهما عقدان من الحجر... أخافني أن تكونا ماتتا أو تكونا اقتربتا جدّا من الموت... أدرك جميل ما بدأ يدور في ذهني – أو هكذا خيّل إليّ – فأشعل لي سيجارة ومدّها إلى شفتيّ ثمّ مدّ أصابعه – ولأول مرّة منذ تركنا المدينة – وشغّل جهاز التّسجيل.

عندما كنت صغيرا كان دخول سيّارة إلى ريفنا الجميل حدثا يظلّ الكبار زمنا يؤرّخون به... نلتفّ حولها، نتلمّسها، نتشمّمها... نتملّى وجه سائقها... نقيس بأعيننا طولها وعرضها وارتفاعها... نسأل من أين جاءت... أين تمضي... ماذا يريد صاحبها... ثمّ لا ينسينا مجيء سيّارة إلينا إلاّ مجيء سيّارة أخرى. لو جاء اليوم من يلتفّ بنا سأكون

سعيدا... إذا التفّ نفر من أهلي حول سيّارة صاحبي اليوم فسأعرف أنّ الجوع لم يفتك بهم كما فتك بأهل المدينة !

-14-

قالت:

- كنت أعرف أنّك ستأتي.
- اليوم ؟ !
- في هذه الأيّام.

كم كنت حكيما يا حاج مسعود ! كنت تهرّبهما من الموت. جئت بهما إليك لتمنحهما أيّاما إضافيّة أخرى انتزعتها من عمرك أنت.

أسرعتا إليك وأحاطتا بك... قبّلتك سميحة وشدّت على أصابع يدك اليمنى أمّها... هالك أن تجد وجنتيهما مكتنزتين وعينيهما صافيتين... أيّامهما في الرّيف أصلحت ما أفسدته المدينة... أبوك جاء بهما ليعيد إليهما وجهيهما... تراه رحل آسفا لأنّه لم يستطع أن يعيد إليك وجهك ؟... وصفاء عينيك ؟... ولحمك؟

فجأة، هكذا وبدون إنذار سابق، عاودك الخوف. خوف مصحوب بالغضب عاودك لرؤية سميحة وأمّها بوجهين منتفخين وعينين صافيتين ولحم كثير. لم تدر لماذا صوّر لك ذلك أنّ في ريفك الجميل جميلا آخر استغلّ جوعهما وموت أبيك وبعدك عنهما... تراءت لك سميحة متربّعة في حضن رجل سمين وبين يديها زجاجة كوكا أو مربّع شوكولاطة... تراءت لك فريدة أمّها تسوقها على عجل إلى أحد

العطّارين أو أحد الفلاّحين، تسلّمها إليه، توصيه بها رفقا، وتستلم منه كيسا أسود أو صندوقا من الحجم الصّغير... تراءى لك أبوك يتبعهما خلسة ويرى سميحة تدخل ويغلق عليها الباب فيما أمّها تقف في الخارج في انتظار أن يقضي وطره منها رجل الكيس الأسود. بعينيك رأيت دماءه تغلي وتفور وتفيض على العروق ورأيت ضغطه يرتفع وعينيه تجحظان وحركته تهمد ونفسه يتقطّع. رأيت روحه تستلّ نفسها من بدنه وتغادره خلسة حتّى لا يتفطّن أحد إلى ما رأى صاحبها قبل موته بقليل.

تغدّينا.

طبخت زوجتي مرقا بفخذ أرنب وأحضرت لنا سميحة كسرة قمح!

هذه وليمة أخرى !

هذه شحنة لأيّام إضافيّة أخرى... لو جئت وحدك ! لو لم يكن معك جميل! لو لم تكن تخاف أن تحرج صاحبك وتحرم من خدماته حريفاته الكثيرات... لقضّيت أيّاما أخرى هنا... هنا تصطاد أرنبا، فيبقيك حيّا أيّاما، تذبح فرخ حمام فتشعر أنّك على قدم المساواة مع امرأة الشّوكولاطة ومع رجل امرأة الشّوكولاطة السّمين. هنا يموت رأس غنم أو ماعز فتقتسمه العائلات القريبة والبعيدة ويتعشّى النّاس لحما وشايا وجنسا وحكايا وأغنيات جميلة.

أعدّت لنا أخواتي كيسين – لست وحدك من يتصدّق يـا جميل – في كلّ منهما كمشة من الفرماس (مشمش مجفّف) وكأس سمن وقبضة تمر وكسرة قمح وحبّات زيتون وأرنب!

هذه وليمة أخرى... أيّام إضافيّة جديدة لم تخسر للحصول عليها غير سفر ساعات معدودة. لو تأتي الآن امرأة الشّوكولاطة ! ستجدني قويّا لو تأتي ! بالفرماس، بالزّيتون، بأفخاذ الأرانب، بكسرة القمح، بالتّين المجفّف، بالشّاي الأحمر، بالكوكا الباردة...

قالت زوجتي ونحن في طريق العودة:

- هل لديك أخبار عن عاصم؟
- البارحة كنّا معا.

صاحت سميحة:

- جاء ؟
- لا. كنّا معا بالهاتف. هو بخير. يسلّم عليكما.
- وكاترينا ؟
- وعدتني بزيارة قريبة.

كان يجب أن أطمئنهما ولو كذبا.

- هل راجت أخبار عن إعادة تمويل البنوك والعودة إلى صرف الجرايات؟

لم أكن أريد أن أنغّص نشوتي بشيء.

- آخر الأخبار تتحدّث عن حلول فعليّة قريبة.

- هل أكّد لك ذلك عاصم؟
- أكثر من مرّة.

عندما صرنا ثلاثتنا في الدّاخل، رنّ الهاتف.

لا أحد يطالبنا هذه الأيّام بخلاص فواتير الماء وفواتير النّور الكهربائيّ وأوراق الهاتف. قبل الأزمة، سمعت أنّهم قرّروا إضافة فاتورة جديدة. قلت لزملائي في العمل:

- لا أستطيع أن أتخيّل نوعا آخر من الفواتير، نحن ندفع لضوء الفوانيس وللماء الصّالح وغير الصّالح وللإذاعة والتّلفزة ولكلّ أنواع الهواتف...

- مازال بوسعك أن تتخيّل، ردّ أحدهم. ستصلنا بداية من الشّهر القادم فاتورة الهواء. ستنتصب شركات مهمّتها تخليص الهواء من النّفايات وتجويده وتلطيفه حتّى يصبح مناسبا للمرضى والأصحّاء، للصّغار والكبار، للمواطنين وللسيّاح القادمين من بلدان أخرى...

ثلاثتنا وضعنا أيدينا على السّماعة في نفس الثّانية. وضعناها معا وقلنا معا "آلو" ثم أجبرتنا سميحة على ترك السّماعة والوقوف وراءها في انتظار أن يأتي دورنا.

ألقت علينا كاترينا نفس الأسئلة وتلقّت منّا الأجوبة نفسها... ثم جاء دور عاصم فأنهكته أمّه بأسئلتها الكثيرة ونصائحها التي لا فائدة منها. سألته عمّا يأكل في كلّ وجبة، عمّا يفعل كل ساعة، عن

أو قات نومه وصحوه، عن عمله وسكنه وكيف يقضي أو قات فراغه، عن كاترينا وأهلها وعن فرنسا وطقسها وطبائع أهلها... ثمّ ظلّت ساعة توصيه أن يأكل جيّدا وينام باكرا... وأن يهاتفها كلّ ليلة... ثمّ على مضض مدّت عاصما إليّ:

- أهلا عاصم. كيف أنتم ؟
- بخير. بخير أبي. وأنتم ؟ أنا قلق بشأنكم كثيرا.
- لا تقلق. نحن بخير. نأكل ونشرب ونتنفّس وننتظر.
- اسمع أبي. كاترينا وأنا لا نرى لبقائكم هناك موجبا... سنرسل إليكم تذاكركم وسننتظركم هنا في المطار...

فاجأني عاصم... لم أستطع أن أعثر على جواب سريع.. أنا وسميحة وأمّ سميحة في فرنسا هربا من الجوع أو هربا من الموت أو بحثا عن حياة مّا ؟ !

- دعني أفكّر. سأجيبك لاحقا.
- هنا سنكون معا. ستشتغلون بمرتّبات كبيرة وبضمانات عالية. هنا لا يسرق النّاس بعضهم بعضا ولا يأكل النّاس العشب وأوراق الشّجر ولحوم الجثث.
- أليس لديكم أخبار عنّا؟
- لا جديد. فقط أخبار عن الشّركات التي ستنتصب هناك وتعيد تنشيط البنوك.

- شركات ستأخذ بأيدينا إلى أن نقف على أرجلنا من جديد ؟

- تقريبا.اسمع أبي ،أنا في حاجة إليكم، في حاجة إلى وجودكم معي لأطمئنّ عليكم وأطمئنّ بكم.

- ما معنى " لأطمئنّ بكم " ؟ ما عهدتك ليّـنا إلى هذا الحدّ ؟

- ليس ليــنًا أبي ولكنّني في حاجة حقّا إلى وجودكم معي هنا في فرنسا.

ما به عاصم ؟ هل بدأ يأكله النّدم على تركنا ؟ هل أساءت كاترينا إليه ؟ هل بدأت تنهشه الغربة ؟

- ما بك عاصم ؟ صوتك الآن صوتك منذ عشرين عاما عندما كنت أيّامَك الأولى بالمدرسة تشدّ على يديّ لتستبقيني معك دقائق إضافيّة في القسم أشدّ بها أزرك وألفت بها انتباه معلّمك إلى أنّ لك أبا يرفض أن يؤذى في ولده ولو خطأ.

- لا أخفيك شيئا أبي. منذ ثلاثة أيّام وأنا أعيش كابوسا لم أعشه حتّى أيّام بطالتي التي سبقت دخول كاترينا حياتي.

- بدأت تقلقني عاصم. ما بك؟ مرضت أم أُهنت أم هدّدوك بالطّرد أم ماذا ؟

كنت أتكلّم وأنا أضغط على الكلمات ضغطا حتّى لا تتنبه إلى ما فيها من غضب ومن خوف سميحة وأمّ سميحة.

- اطمئنّ أبي. أنا أتحدّث معك لأطمئنّ بك. لأفرغ صدري. لأخفّف عنّي ثقل حملي. لا أريد أن أخيفك ولا أن أحيّرك ولا أن أقلقك بشأني.

- ولكنّك لم تقل شيئا. ما الذي طرأ على حياتك فغيّرها وعلى هدوئك فبعثره... ؟ لا تجعلني أصيح عاصم... أمّك وأختك على مرمى ريشة منّي.

- أردت فقط أن أحيطك علما أنّ جماعة – لا أدري كيف سألوا عنّي ولماذا وقع اختيارهم عليّ قد اتّصلوا بي منذ ثلاثة أيّام عن طريق مكالمة هاتفيّة واقترحوا عليّ أن أنضمّ إلى تنظيم يؤوبهم إسمه....

- ما إسمه ؟ لم أسمعك.

- .....

- لم أسمع ولكن لا يهمّ. المهمّ ماذا قلت لهم ؟

- رفضت طبعا. رفضت، أبي. هل كنت تتصوّر أن أقبل الانتماء إلى تنظيم ضحاياه مدنيّون أبرياء لا جمل لهم ولا ناقة في علاقات الدّول ومصالح الأحزاب وصفقات السّلاح حتّى ولو أغروني بكنوز علي بابا؟

- كيف رفضت ؟ قل لي كيف نقلت إليهم رفضك ؟ يعني: ألن يؤذيك رفضك ؟

- لا. شكرت لهم سعيهم وتأسّفت لهم بدعوى أنّ صحّتي لا تسمح لي بمشاركتهم بطولاتهم.

- ولماذا أنت دون الخلق جميعا؟

- لا. لست وحدي. الذين اتّصلوا بي جماعة يجوبون الأقطار ويحشدون إلى تنظيمهم منخرطين جددا. أنا كنت واحدا من الذين اتّصلوا بهم.

- تركوك ؟

- تركوني.

- لم يعودوا إليك ؟

- لن يعودوا إليّ. اطمئنّ. فقط لم أستطع أن أخفي الأمر عنك.

- شكرا. شكرا عاصم وكن حذرا دائما.

لم أكن صادقا وأنا أشكر عاصما على صراحته وعلى شكواه التي فجعني بها. بيني وبين نفسي تمنّيت لو لم يقل عاصم ممّا قال شيئا. تمنّيت لو لم يتّصل اللّيلة أصلا. تمنّيت لو كان الذين جاؤوه جماعة مخدّرات... جماعة تزييف عملة... جماعة تزوير جوازات سفر... جماعة دعارة... أمّا هؤلاء... هؤلاء الذين أصبحت بياناتهم تتتالى وأصبحوا يفخرون بأن ينسبوا إليهم تفجيرات الشّوارع والأنزال والأسواق والملاهي والحافلات... هؤلاء مخيفون فعلا. أليس جنونا أن تفجّر نزلا ؟ أليس عبثا أن تزرع في سوق مكتظّ بخلق لم يؤذك

أحد منهم قنبلة ثمّ تقف منتشيا تحصي ضحاياك وتصدر بيانات التّبـــنّي ؟ أليس كفرا أن تعترض بلغم أو بمجموعة ألغام سبيل قطار يجوب المداشر والمدن حاملا بين ضلوعه بشرا لا ذنب لهم سوى أنّ دواعي مختلفة دفعتهم إلى السّفر ؟

هل أظلمك كاترينا لو أقول لك إنّني أصبحت أكرهك وإنّني لو كنت أدري الغيب لمنعتك عن عاصم ولمنعت عاصما عنك.

عندما جلست وأمسكت رأسي بين كفيّ وبدأت أستعيد ما دار بيننا وأفكّر في اقتراح عاصم، جاءتا، جاءتا معا وأحاطتا بي وسألتاني معا:

- ما بك ؟ فيم تفكّر؟
- عاصم يقترح أن نلحق به إلى فرنسا.

فاجأهما الخبر ولم تردّا بشيء. لم يكن سهلا على أيّ منّا أن يتّخذ قرارا سريعا. سمعنا عن عائلات كثيرة هجّت منذ اشتدّت الأزمة إلى بقاع عديدة... إلى بلدان مجاورة... إلى أرياف نائية... إلى فرنسا... إلى بعض دول الخليج... إلى فلسطين... جاء أهاليهم هناك وأخذوهم. قالوا لهم:

- تعالوا نأكل معا خبز الغربة... قد يكون مرّا ولكنّه لن يكون أمرّ من لحم الجثث وورق الشّجر ولحوم الدّواب المريضة.

- وديارنا ؟ وجراياتنا التي ستأتي ؟ ومدّخراتنا التي خبّأناها في البنوك التي سرقت لأيّام سود فجاءت الأيام السّود وأتلفتها ؟

- أنقذوا أعماركم أوّلا. أعماركم التي يفتكّها منكم الجوع أولى من دياركم التي لم يعد فيها ما تخافون عليه...

قالت سميحة:

- وماذا قلت لعاصم ؟

- وعدته أن لا أتأخّر في الرّدّ عليه.

ليلتها لم ننم. ثلاثتنا بتْنا يقظين نقلّب كلّ بينه وبين نفسه فكرة الرّحيل إلى فرنسا. رغم تعب سفر السّاعات الثّمانية، لم ننم. رغم الشّبع الذي كنّا عليه بعد كسرة القمح ومرق الأرنب، لم ننم.

عندما جاء أبي وقال سآخذكم معي، لم نتردّد كثيرا، استطعنا أن نرسي على حلّ، استطعنا أن نلبّي طلبه دون أن نجادله... أمّا ما يلحّ عليه عاصم وصديقته الفرنسيّة فلا يبدو سهلا أن نتّفق حوله... وأن نأخذ بشأنه قرارا سريعا... تمنّيت لو كنت أستطيع أن أنصت إلى ما يدور في ذهن سميحة وأمّها... تمنّيت لو كانتا تفكّران بصوت مسموع... لم يكن الليل قد تقدّم بعد... تنحنحت... تقلّبت... قلت ألفت اهتمام إحداهما أو كليهما ثم نبدأ في التّشاور... فلم تعر أيّ منهما اهتماما لحركاتي وأصواتي... قلت أتسلّق السّلم الجانبيّ وأصعد فوق السّطح... ستنبّه إليّ فريدة وستلتحق بي

وستثير من تلقاء نفسها مسألة السّفر إلى فرنسا... كانت لديّ سيجارة... أشعلتها... ووقفت أتفرّج على المدينة العائمة في الظّلمة وفي الصّمت... منذ متى لم أصعد إلى السّطح... منذ متى لم أشاهد مدينتي ليلا... مدينتي التي حوّلها جماعة من اللّصوص إلى جثّة لا تموت ولا تحيا... شربوا ماءها ودماءها ويوم أيقنوا أنّها نشفت تركوها تحتضر وهجّوا إلى بلدانهم الأخرى... حيث ودائعهم الثقيلة التي لن يجوعوا معها أبدا.

لم تلحق بي فريدة. ولم يثر صعودي إلى السّطح أيّ اهتمام فيها... لو كان يمكن أن أذهب الآن إلى جميل... لو كان يمكن أن يأتيني جميل... لجلسنا هنا، فوق السّطح نتناوب على مصّ السّيجارة ونناقش معا مسألة الرّحيل. حانت منّي التفاتة نحو مغازته أو نحو المغازة التي أصبحت ماخورا ففوجئت بأنها مضاءة من الدّاخل وأنّ بصيصا من النّور يتسلّل عبر أسفل بابها وشقوق شبّاكها... تمنّيت لو يصل النّور إلى امرأة الشّوكولاطة... لو أراها الآن... لا شكّ أنّها نزعت الشّورط وأنّها ترتدي بدله روبا ليليّا أبيض يبدأ من منتصف الحلمتين وينزل إلى منتصف الفخذين... لا شكّ أنّها الآن تأخذ وضع انبطاح... أيّ وضع انبطاح... وتضطجع إلى جانب ذلك الرّجل السّمين... يكفيني أن أرى امرأة الشّوكولاطة... لينعم جميل بنسائه الكثيرات... ليأكل لحمهنّ الطريّ العاري... وليأكلن سميده الأسود المخلوط بالدّود... أنا، تكفيني امرأة الشّوكولاطة.

هبّت فوق السّطح نسمة باردة أنعشتني... اضطجعت... وحوّلت بصري من ماخور جميل إلى نجوم السّماء... ونمت.

أنقذتك النسمة الباردة من التّفكير في ما فاجأك به عاصم فنمت. أحسست آخر الليل وأنت بين نوم ويقظة بقدمين تقتربان وبجسم أليف يقف عند رأسك فلم تفتح عينيك وتركت نومك يغلب اليقظة.

-15-

اقتسمنا بيضة مسلوقة تعمّدت زوجتي أن تذرّ عليها ملحا كثيرا حتّى نشرب بعدها ماء كثيرا فتمتلئ بطوننا ونحسّ بالشّبع ثمّ جلسنا نتشاور حول الرّحيل إلى فرنسا.

فجأة، قطع نقاشنا المرتبك رنين جرس الباب.

قلت: هذا جميل.

وقالت سميحة: هذه دعوة لجنازة جديدة.

وقالت فريدة: هذا واحد يتسوّل.

وذهبنا نفتح.

لم نجد جميلا ولا واحدا من المتسوّلين ولا من يخبر عن جنازة جديدة. كانت بالباب فتاة شقراء تلبس سروالا ضيّقا وسترة بيضاء خفيفة... لم تكن فارعة الطّول ولا غزيرة الشعر... لم تكن ممتلئة البدن ولم تكن ضعيفة البنية... مرآها ذكّرني بكاترينا... لو أطلّ معها عاصم لقلت هي، هي بدّلها الوحم أو بدّلها الحمل أو بدّلها عاصم. حيّتنا بفرنسيّة طليقة واستأذنت للدّخول. لم تكن وحدها. كان معها شابّ أنيق يمسك كاميرا وتتدلّى على صدره آلة تصوير وكهل

بلحية صفراء يمسك ميكروفونا، دخلوا... جلسوا... ثمّ استأذن الرّجلان واتّجها نحو سيّارتهما وعادا منها يحملان صندوقا كرتونيّا فيه حلوى وسكّر وعصير غلال وشاي وقهوة وبسكويت وأرزّ وحليب وملح وتبغ و وقيد... وأشياء أخرى. دعانا ضيوفنا إلى الإفطار فأفطرنا... ثمّ قالت Odette:

- نحن مبعوثو قناة... جئنا لنصوّر أحوالكم. أرجو أن تسمحوا لكاميراواتنا بالدّخول إلى مطابخكم ومخازنكم وأن يكون الحوار بيننا صريحا لا خجل فيه ولا مراوغة.

ثمّ قبل حتّى أن تسمع منّا ردّا أشارت للكاميرا أن تتجوّل في البيت... وأن تدخل إلى المطبخ فتجوس داخل أكياسه الفارغة وصناديقه الخاوية وأوانيه البيضاء... قبل أن تعود الكاميرا إلى وجوهنا اليابسة تصوّر عظامها النّاتئة وإلى جثثنا تلتقطها من كلّ الزّوايا... ثمّ خرجت الكاميرا إلى حديقة المنزل تلتقط أغصان أشجارها العارية ووقفت أمام قفص العصافير تلتقط ما تناثر داخله من ريش منتوف... سألتنا Odette عن يومنا كيف نقضّيه وعن ذخيرتنا كيف نقسّمها... سألتنا إن كنّا أصبحنا نخاف الموت أكثر من أيّ وقت مضى وإن كان مازال لدينا بصيص أمل في حياة مّا... ثمّ قالت:

- تعالوا نخرج معا إلى بقيّة منازل حيّكم هذا نطرق الأبواب ونرى إن كانت فيها جثث أخرى.

ذهبنا إلى عمّتي "تفاحة" وإلى جارتنا "ريم" وإلى سي" صابر" وزوجته ثمّ وسّعنا الجولة ووصلنا إلى جميل وإلى نعيمة وإلى كلّ الذين لم يموتوا من جيراننا الأقربين والأبعدين. قالت Odette وهي تفتح صندوق السّيّارة:

- لا نريد أن تصوّر قناتنا يدا عليا ويدا سفلى. سنضع الصّناديق على الأرض وليأخذ بعد ذلك كلّ صندوقه.

ثم التفّ الجماعة حول "تفّاحة"... صوّروا شعرها الأبيض المصبوغ بالحنّاء. صوّروا تجاعيد رقبتها ووجهها... صوّروا ما بقي في فمها الأحمر من أعقاب أضراس... صوّروا ارتجاف يديها وارتعاش شفتها السّفلى... ثمّ بدؤوا يسألونها عن حياتها منذ بدأت أيّام الجوع.

قالت تفّاحة:

- عندما بدأ الجوع لم يكن في بيتي غير نصف كيس من القمح ورطل من الفرماس. كلّ مساء أشوي كمشة قمح وأحلّي بحبّة فرماس ثمّ أشرب ماء كثيرا... وأنام، ربّما كنت سأموت اليوم ولكن يبدو أنّ خيركم الذي جلبتموه معكم سيمدّ في عمري أيّاما أخرى. أنا فعلا مدينة لكم بالأيّام التي سأعيشها بعد اليوم.

سألتها Odette:

- هل خفت الموت ؟

ردّت:

- لا. الموت كان على عتبة الباب. كان يمكن أن يفترسني في كلّ لحظة... كنت أنتظره ولكنّي لم أكن أتمنّاه.

- كان لديك أمل في أنّ الأزمة لن تستمرّ طويلا وفي أنّ الأيّام القادمة ستكون أبهى وأزهى؟

- لا. الدّنيا علّمتني أنّ الزّمن يسير دائما نحو الأسوإ. خذي أزواجي الأربعة مثلا. لاحقهم كان دائما أسوأ من سابقه !

ضحكت Odette وضحكنا معها وقهقهت عمتي تفّاحة وهي تخفي فمها الأحمر بيدها المرتعشة وتُعرض عن عين الكاميرا... استدارت نحو السّيّارة... أخذت صندوقها ثمّ ظلّت العيون تتّبعها إلى أن أغلقت وراءها الباب.

التفتت Odette إلى نعيمة... وإلى جميل... وإلى آخرين وأخريات تسألهم عن حياتهم قبل الجوع وبعده... عن أمواتهم كيف ماتوا وعمّن بقي منهم حيّا كيف يعيش... عمّا إذا خافوا الموت أو تمنّوه... وعمّا إذا كان لديهم أمل مّا في أنّ الحياة ستعود إلى سيرتها الأولى... ثمّ قالت لنا جميعا:

- سنبثّ برنامجكم هذا الخميس القادم على الثّامنة واثنتين وخمسين دقيقة. فانتظروه. سترون أنفسكم. ربّما لم يفكّر أحد منكم منذ بدأتم تجوعون أن يرى نفسه... أن يتفقّد وجهه في

المرآة... ربّما لم تنظروا إلى وجوه بعضكم منذ زمن... الخميس القادم سيكون فرصة لتشاهدوا أنفسكم... لتشاهدوا بعضكم بعضا.

ثمّ ودّعتنا وانصرفت.

لم تعش عمّتي تفّاحة إلى الخميس... ماتت مساء الأربعاء الموالي لزيارة فريق التّلفزة. عندما نفذ كيس القمح ونفذت حبّات الفرماس لم يستطع بدنها أن يظلّ حيّا ببسكويت Odette وحلواها وأشيائها الأخرى. حفرنا لها حفرة في طرف أقرب مقبرة، وارينا‌ها التّراب، وبقينا ننتظر بلهفة حلول المساء لنستعيد صورتها من جديد ونستمع إليها تنعي الرّجال وحلاوة الزّمن.

هتف عاصم.

- أبي، أنا الآن أراكم وأسمعكم. أنتم الآن أمام عينيّ صوتا وصورة. تبدّلتم كثيرا أبي. لم أكن أتخيّل أنّكم ستتغيّرون إلى هذا الحدّ. أنت لم تعد أنت.

- لا، عاصم. أنت تبالغ. نحن بخير.

- لماذا تركتهم يجوسون داخل الدّار؟

- لم يكن ذلك مجّانا. كان مقابل أيّام إضافيّة أخرى.

- جوعكم هناك قلب الدّنيا هنا . جوعكم هناك أصبح شاغل كلّ النّاس هنا.

- يفكّرون فينا؟

- يطالبون بتجميد أرصدة الذين هرّبوا أموال البلد وينادون بقطع أيديهم.
- وماذا يفيدنا نحن قطع أيديهم؟
- سيفيد كثيرا. لا تتشاءم كثيرا أبي. مازلت أنتظر ردّك بخصوص رحيلكم إلينا؟
- قريبا. قريبا جدّا أخبرك بما أتّفق عليه مع أمّك وأختك. ما زلت مهموما بخصوص آخر ما دار بيننا ؟
- حول الجماعة ؟
- حول الجماعة.
- اطمئنّ أبي. لم يعودوا إليّ.
- متأكّد ؟
- متأكّد.

-16-

رنّ الجرس.

خفّت فريدة إلى ألباب تفتحه وأرتمت بين أحضان أختها ألقادمة من الجزائر. وقفنا - سميحة وأنا – وراءهما ننتظر أن تنتهيا من العناق والقبل ثمّ أشارت مديحة دون أن تتحرّر من أختها إلى سميحة لتقترب، تركت يدها اليسرى على كتف الأولى وضمّت الثّانية بذراعها الأيمن... التفّت أذرع الثّالوث والتصقت الرّؤوس الثّلاثة وعلا صوت القبلات ثمّ بدا لي أنّني أسمع نشيجا مّا.

لنفسي قلت: لم يعد الموت يبكي. لم يعد الفراق يثير فينا الحزن ولا حتّى الاهتمام... لو قيل لزوجتي هذا الصّباح ماتت أخت لك لما ذرفت قطرة دمع واحدة ولنسيت الخبر بمجرّد سماعه... لو قيل لسميحة ماتت خالة لك أو عمّة لاكتفت بالتّرحّم عليها... ما أصبح يبكي هو اللّقاء... هو الحياة.

أخيرا حرّر الثّلاثة بعضهنّ بعضا... وتقدّمت منّي مديحة... سلّمنا وتكلّمنا وتجاملنا ورحّبت بها ثمّ التفتت مديحة إلى الباب وقالت لابنها:

- أُدخل عبد الله.

ودخل عبد الله.

أشقر بعينين خضراوين وشارب كثيف. طويل القامة، ممتلئ البدن، وديع الملامح. بدا عليه وهو يسلّم علينا الارتباك والخجل. مدّ إلى خالته يده السّمينة فتركتها جانبا وجذبته إليها... بدا الفرق واضحا بين قصرها وطوله... وقفت على أطراف أصابعها ومدّت إلى أعلى عنقها لتطاله... أحسّ بها... نزل إليها وبصعوبة واضحة استطاعت أن تقبّله.

عاد عبد الله وأمّه إلى الخارج، فتحا أبواب سيّارتهما وبدآ يخرجان صناديق كرتون معبّأة وأكياسا بيضاء منتفخة وقفافا...

أدخلنا الأيّام الإضافيّة الأخرى التي جاءتنا من الجزائر وتحلّقنا نتجاذب أطراف الهمّ وحديث الجوع والموت.

كم هو مرّ أن تتحدّث عن جوعك وعن مرضك... كم هو مرير أن تعجز عن إخفاء ضعفك للآخرين. كم هو مؤلم حدّ تمنّي الموت السّريع أن يكشف لغيرك همَّك صمتُك وكلامُك، برودك وانفعالك، مبالاتك ولا مبالاتك، تصنّعك الشّجاعة وغلبة الخوف عليك.

كم هو مؤلم أن تغلبك الدّموع... كم هو مؤلم حقّا أن يفضح سائل مالح ينسكب من العينين ضعف رجل تتوقّف أحيانا على إمضائه مسائل حياة أو موت... سائل يخرج منك فيفضح ضعفك ويخرج غيرك من حياده فيشفق عليك... أو يسخر منك... أو يعرض عنك...

نهضت زوجتي ونهضت معها مديحة وقامت إثرهما سميحة ودخلت المطبخ تعدّ الفطور والقهوة والشّاي وبقيت وحدي مع ابن أخت زوجتي سي عبد الله. تخاف دائما كلّما اقتضى مقام مّا أن تنفرد بشخص أو ينفرد بك شخص أن يكون قليل الكلام. تخاف دائما أن يكون صاحبك من أولئك الذين لا يتكلّمون إلاّ بمقدار وفي مواضيع قليلة... يبتسمون إذا ضحكت ويجيبون باقتضاب إذا سألت ويسكتون إذا سكتّ.

قلت لسي عبد الله بعد أن أفطرنا – قلت أفطرنا ولم أقلها سهوا أو مجازا أو خطأ – جاءت سميحة بمائدة عليها قهوتان وصحن بسكويت وكأسا عصير وموزتان... تمنّيت أن يدفع جميل الباب ويدخل فيصيب ممّا نصيب... ويرى الموز بعينيه... ويتشمّم رائحته ويلمسه بين يديه ويتذوّقه ويأكل منه... أدركت عندما رأيت الموز على المائدة أنّ صورة جوعنا ليست في أذهان الآخرين قاتمة تماما... ما معنى أن يأتيك أحدهم بالموز في حين انّك تحتاج إلى الملح وإلى السّميد وإلى الزّيت وإلى الوقيد... ما معنى أن يتكرّم عليك أحد بلذّة عابرة ويطعم

لذيذ لا يدوم طويلا في حين أنّك تحتاج أيّاما إضافيّة أخرى قد تمدّ عمرك إلى أن تشارف على النّجاة ؟

- يمكنك أن تنام إذا كنت متعبا سي عبد الله. أعرف أنّ الطّريق كان طويلا و شاقّا.

- لا، سي محجوب، الطّريق كان طويلا نعم، ولكنّنا كنّا بين المسافة والمسافة نتوقّف ونصيب بعض النّوم.

لم أر سي عبد الله هذا قبل اليوم، أعرف أنّ لمديحة أخت زوجتي ولدا وأربع بنات وأعرف أنّ زوجها يشتغل في فرنسا ولا يعود إلى الجزائر إلّا أوّ ل رمضان كلّ عام، يقضي مع العائلة الشّهر الكريم ويظلّ بين زوجته وبناته وابنه عبد الله إلى ما بعد عيد الإضحى ثمّ يرحل من جديد... زوجتي وأنا ذهبنا لزيارتهم مرّتين لا أذكر إن كانتا بمناسبة أو بدونها ولكنّني في تينك المرّتين لم أر عبد الله.

- كيف حال الوالد سي عبد الله ؟

- بخير. يسأل عنكم دائما. ينوي أن يحجّ هذا العام.

- هذا رائع! لم أخبرك أنّ عاصما ابن خالتك يعيش الآن هو الآخر في فرنسا.

- صحيح ؟ منذ متى ؟ وماذا يفعل عاصم هناك؟

- تعرّف على صديقة اسمها " كاترينا ". أحبّا بعضهما وجاءت عندما اشتدّت أزمة الجوع وطارت به إلى هناك. قام بالتّسجيل للمرحلة الثّالثة وبدأت أموره تستقرّ.

- صدّقني سي محجوب، لم أر عاصما و لم أعرفه إلاّ من خلال الهاتف ولكنّي أحسّ أنّه قريب جدّا منّي.

- هو هكذا. يحبّه كلّ من يتعرّف إليه ولو من بعيد. وأنت سي عبد الله، أنهيت دراستك؟

- حصلت على الماجستير هذا العام وسأشتغل بداية من أكتوبر القادم بالتّدريس.

- مبروك. مبروك سي عبد الله. يجب أن لا تتوقّف عند الماجستير ؟...

- إن شاء الله.

جاءتنا سميحة بطبق عليه كأسا شاي ووضعته أمامنا وانصرفت.

قلت لعبد الله:

- لعلّك تريد أن تتجوّل في جنّة المدينة وترى ما بقي منها وما لم يبق؟

- بكلّ سرور. كنت انوي أن أقترح عليك ذلك.

شربنا الشّاي واستأذنّا الجماعة وخرجنا. عرّجنا على دار جميل... أركبناه معنا وانسابت بنا السّيارة وسط شوارع المدينة وبين مبانيها وأزقّتها وأحيائها الرّاقية وأحيائها الميّتة... وقفنا أمام البنوك الخالية والإدارات والمساجد والحانات والمحلاّت المغلقة... شاهد سي عبد الله الزّجاج المهشّم والسّيّارات المرشوقة بالحجارة وشاهد

المقابر المتناثرة التي أصبحت تحيط بالمدينة... تأمّل وجوه بعض الجثث الحيّة التي اعترضتنا ووقف طويلا أمام معلّقة فيلم " المصير " ليوسف شاهين التي كانت تطلّ من أعلى إحدى قاعات السّينما على كلّ المدينة العائمة في الصّمت وفي الموت.

لم يقل عبد الله شيئا. لم يسأل ولم يعلّق ولم يبد عليه أنّه يرغب في مشاهدة أطراف أخرى للمدينة. بصمت ركبنا وبصمت تجوّلنا وفي صمت أيضا عدنا من حيث انطلقنا.

- السيّارة من فضلك سي عبد الله !

لم يفهم عبد الله شيئا، لكنّه ترك مقعده ونزل يتبعني فيما انطلق جميل في اتّجاه "المقصّ" رجل البنزين الرّفيع... ملأ جميل خزّان السيارة وأعادها إلينا... ثمّ اعتذر وخرج واعدا باللّقاء مساء...

بقدر ما ارتحت لسي عبد الله وفرحت بمقدم أمّه ومقدمه، بقدر ما استأت لهذا التّبذير الذي بدأ مع فطور الصّباح وتواصل في غداء اليوم. طبخت زوجتي كسكسا فيه كلّ نصف أرنب أخواتي الذي كنّا نحتفظ به في الثّلاّجة ووضعت مع الكسكسي موزا آخر وتفّاحا ثمّ أعدّت شايا جديدا.

هذه وليمة أخرى.

هذه وليمة كانت ستكون أيّاما إضافيّة أخرى.

بدأت أقلق. صحيح أنّ الجماعة يأكلون من الخير الذي جلبوه وأنّنا نأكل معهم من صناديقهم... ولكنّ المسألة مسألة حياة أو موت... وأخبار التّلفزة وعاصم وكاترينا وجميل مازالت لا تبشّر بقرب انفراج الأزمة... وعبد الباسط لم يعد يقرأ آيات التّعاون والصّبر بل آيات الجنّة الموعودة... بدأت أقلق ولكنّي كنت أكتم غيظي... ربّما كنت سأنفعل... ربّما كنت سأنفجر لو طالت زيارة مديحة وعبد الله...

بعد العشاء، اقترح الجماعة توزيعا جديدا... أنا ومديحة وفريدة فوق السّطح... وسميحة وعبد الله تحته... لم أُولِ الأمر اهتماما... وصعدت إلى السّطح.

- اسمع سي محجوب، قالت أخت زوجتي، أنا محرجة كثيرا ولكنّي مضطرّة أن أناقش معك مسألة مهمّة.

- ليس هناك أبدا ما يدعو إلى الإحراج. أرجو أن تقولي بكلّ حريّة ما تشائين.

تبادلت مع أختها نظرات ارتياح وخيّل إليّ أنّها تستنجد بها لتتكلّم عوضا عنها ولكنّ أمّ سميحة ظلّت تلازم الصّمت... تهمّ بأن تتكلّم... ثم تصمت... تصمت ثمّ تهمّ بالكلام... إلى أن وضعت مديحة حدّا لتردّدها وانتظاري:

- جئتك لأمرين: أوّلهما أن ترافقوني ثلاثتكم إلى الجزائر... لن تكونوا ضيوفا بل أصحاب البيت... أنت تعرف أنّ سي مختار يحترمك كثيرا. وجودكم معنا سيفرحه ويؤنسنا.

وثانيهما ؟

- ثانيهما... وعادت تنظر إلى أختها.

لو كنت أستطيع أن أخمّن وأعرف فيم تفكّر و بماذا تريد أن تفضي إليّ لساعدتها، لتكلّمت بدلا عنها، لاقترحت على نفسي ما تنوي أن تقترحه عليّ... تبادلتا النّظرات... وشوشتا وتهامستا.

قلت:

- لا أرى يا مديحة داعيا للتردّد، قولي ما بدا لك.

- أنا فقط محرجة لأنّ الوقت غير مناسب لأن أطلب منك ما سأطلب.

- وما هو ذنبنا إذا كان الوقت غير مناسب ؟ هيّا توكّلي على الله.

وتوكّلت مديحة على الله.

- الواقع أنّنا نفكّر بتزويج عبد الله.

وسكتت.

كأنّها تجسّ النّبض.

كأنّها ترتاح ممّا قالت.

كأنّها تستعدّ لما ستقول.

ولكنّ كلامها لم يفاجئني.

قلت لها:

- هذا رائع. عبد الله أنهى دراسته وسيلتحق بالتّدريس. لم لا يتزوّج ؟

ضحكت مديحة وضحكت معها أختها ومن الأسفل جاءنا صوت ضحك آخر. صوت ضحك عبد الله وسميحة.

- أنا أعرض عليك الأمر لأنّه يهمّك، لأنّك طرف فيه.
- كيف؟
- نحن نريد أن نخطب لعبد الله سميحة ابنة خالته.

تلمّست جيبي أبحث عن سيجارة أشعلها... قرّبت منّي أمّ سميحة المنفضة... بدأت أدخّن وأنفث الدّخان عاليا حتّى لا أزعج ضيفتي. جاءت كاترينا وأخذت عاصما... جاء أبي وأخذ البقيّة الباقية... جاء الموت وأخذ أبي... ذهبت وجميل وأعدنا ما أخذ أبي... ثمّ جاءت مديحة لتأخذ ابنة أختها.

- أغضبك كلامي سي محجوب ؟
- لا. لا أبدا. فاجأتني ولكنّك لم تغضبيني. سميحة شابّة ويلزمها رجل. المسألة أنّ الوقت كما تقولين ليس مناسبا.
- وما ذنبنا نحن سي محجوب إذا كان الوقت غير مناسب ؟ سنذهب معا سي محجوب. ستظلّون بيننا إلى أن يعود سي مختار. نحتفل بعودته من الحجّ ويعرس عبد الله وسميحة في نفس الأسبوع.

تذكّرت خطيب سميحة الأوّل الذي صدمه اختفاء أمواله فجأة فمات...هكذا فجأة دون حتّى أن يحتضر أو يوصي بشيء أو يودّع أحدا من أهله... تذكّرت أهله عندما قالوا لي:

- " انحبّوا سميحة بالحوايج اللّي عليها ".

تذكّرت رفضي ورفض أمّها لكرمهم ولجوئي إلى البنك وحصولي على الموافقة على القرض ثمّ تذكّرت يوم ذهبت لأسحب مبلغ القرض ومبلغ الادّخار وأبدأ في تراتيب عرس سميحة، تذكّرت إجازة سميحة النّائمة على يمين سريرها و الممهورة في أسفلها بملاحظة: حسن جدّا...

- هل أزغرد سي محجوب ؟

- أنا لا مانع لديّ ولكن يجب أن تمهليني. يجب أن آخذ رأيها وأستشير أمّها وأحيط أخاها علما.

وزغردت مديحة همسا.

قلت ذلك اعتباطا ولكنّي لم أتحدّث مع سميحة ولا مع أمّها ولا حتّى مع عاصم.

صباحا قلت لمديحة وعبد الله:

- أنا لا أستطيع أن اذهب معكما ولكنّي لا أمانع في أن ترافقكما سميحة وأمّ سميحة.

- وتلتحق بنا قبل العرس ؟

- طبعا. هل أستطيع أن أتخلّف عن عرس عبد الله وسميحة ؟ !

قلت ذلك وتسلّلت في غفلة منهم جميعا إلى السّطح. جلست أحدّق في المدينة الغاطسة في اليأس وفي الموت وأتفرّج من حين لآخر على امرأة الشّوكولاطة ورجلها السّمين إلى أن سمعت محرّك السيّارة يزمجر. أسرعت أنبطح وأخذت أسترق النّظر إلى الجماعة وهم يعبّؤون أدباشهم في صندوق السيّارة ثمّ وهم يركبون ويغلقون الأبواب.

سمعت عبد الله يقول:

- ألا ننتظر سي محجوب لنودّعه ؟

فردّت خالته:

- لا. محجوب لن يعود الآن.

وأجهشت بالنّشيج. وأجهشت معها بالنّشيج ابنتها.

وتحرّكت عجلات السّـــيّارة... تركت وضع الانبطاح ووقفت... أخذت ألوّح في اتّجاه السّـــيّارة بذراعيّ مودّعا إلى أن ابتلعتها الأزقّة وغطّـتها البنايات والأشجار...

وعاودني الألم في شقّ رأسي الأيمن.

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي- مارس 2012

APPROUVÉ
Par saleh y mabrouki , 18:17, 19/03/2021

تصميم النسخة الإلكترونية غلافا و محتوى: الكاتب و المصمم الجرافيكي صالح مبروكي- مارس 2012